قراءة بطعم النقد

في نصوص مصرية وعربية

أشرف دسوقي علي

إبجراما التسييس في كان الرئيس صديقي لعدنان فرزات

في محاولة أولى للتعاطي مع نص كهذا ، كانت كل الأفكار تراودني , لم يكن هناك شئ صعب,التناول , المشكلة كيف أبدأ فهذا النص , نص ناعم شاعري أملس يراوغك حين ملامسته وأنت تظن أنه بين يديك سهلا يسيرا مباشرا ، وبعد أن تنتهي من قراءته وتفرح بتملكك للقلم بين يديك ، يراوغك كأنثى تراودها عن نفسها ، فتعييك الحيل ، لقد تذكرت وأنا أقرأ النص في حجمه الصغير -كما -نسبيا ، مقولة أو إبجراما كاليماخوس حينما سألوه عن سبب كتاباته القليلة فكان رده : إني مقل في سطوري حقا ولكن قد تتفوق ديمترا (إلهة الخصب والفطرة) على شجرة البلوط الباسقة ، ولقد نصحني أبولو قائلا:- لا تقد عربتك إلا في المسالك التي لم يطرقها أحد من قبلك حتى لو كان الطريق عسيرا ، فالنص المترهل الصارخ الزاعق الذي يحمل كل أنواع الخطابات الحماسية ,ليس متوفرا هنا إطلاقا ، ولا حتى تلك الشعارات التي يمكن لصاحب قضية مهما كانت جديته أن يحملها وهو نص لا يرتدي أقنعة ، ولا يمشي بالرمز ، ولا يصطنع الإسقاط تكنيكا للكتابة ، وكنت أعجب ,كيف كان يختبئ العربي القديم في صحراء كاشفة لا شجرة باسقة تُخفيه ولا جدار ! وكيف يكون المرء داهية ومخاتلا ، وهو يمارس لعبة الموت في ملعب مكشوف ، ولم يدم تساؤلي كثيرا ، فتذكرت إحدى قصائدي حيث مثلت لي الإجابة على هذا التساؤل ، لقد وصفت راسي بأنه صندوق أسود ، فالذهنية التي أحسن صاحبها تثقيفها واعملها في حقل الإبداع لابد أنها قادرة على إنتاج أفضل ما يمكن من نص في شتى المجالات ، شعرا ونثرا .

فذهنية المتنبي الفائقة ,قد منحته إبداعا متميزا تجاوز به الجفاف الذهني إلى التأثير الانفعالي ، ومن رأس الرجل الكبير إلى كان الرئيس صديقي ، يشترك أصحاب الذهنية العالية عبر تيار الوعي في ذكر كل ما هو أولي ومبدئي وسام ، فالرأس والرئيس هما جذر واحد -لغة وممارسة- مرورا عبر جمر النكايات ,فالأحداث المتصاعدة في بداية الربيع العربي ,كفيلة بأن يشتعل الجمر في رأسنا جميعا ، وأن نتدثر بالانفعال ، وأن نفقد عقلانيتنا تماما ، وأن نتحرك بوازع التوتر وأن نكتب به رغم استدرار واستقطاب عطف الجماهير ، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق في كان الرئيس الصديق، برغم أن الإهداء الذي أهداه الكاتب كان إلى سورية ، وهي تعيد ترتيب حروف الأبجدية التي ابتكرتها أول التاريخ فيصبح :- ح ر ي ة .

لتأقلم نفسك على التعامل على نص ثوري ملتحف بالشعارات والكلمات النارية تحيط به الدماء ,وطلقات الهاون وأزيز الطائرات من كل مكان ، كانت نعومة التعاطي وسلاستها, تمنحك حربا وثورة بكاتم الصوت الذي يقتل دون ضجيج ! .

فشعوب الربيع العربي وخاصة الشعب السوري يسعى عبر ثورته إلى الانتفاضة من نير الظلم والقهر والطغيان ، وينتفض في ثورة مباركة للتخلص من جلاديه ,وتمتد هذه الثورة حتى إلى ابن وزير الدفاع الذي ينشق وينتمي إلى الجيش الحر ، ليصدر مؤخرا عليه حكم بالاعدام, علاوة على النائب السابق للرئيس .

شاعرية السرد

دون أن نتعرف إلى الكاتب ,فإن إبجراماته التي يبثها كاليقين عبر سرده ، تشي بشاعر من الطراز الأول وبأنه يمتلك القدرة على الإيجاز ، بعيدا عن تفاصيل العمل السردي المفترض ، والذي هو جزء لا يتجزأ من مهمة العمل ، إلا أنه يتوكأ على إيجازه دون إخلال بالعمل ، مستخدما أكثر من تكنيك :- المونولوج ودائرية السرد وتداخل الأزمنة والفلاش باك .
تنوعت شخوصه بين رجال ونساء ، بأعمار متباينة ، وتبحث فيها عن بطل أوحد لا تجد ، حتى لو كان الصوت الغالب يبدو البطل واحدا.
بالرغم من خصوصية الرواية والأحداث ، يكاد يُجزم كثير منا أننا قد عايشنا هؤلاء الأبطال في مصر قبل أن تكون أرض السرد هي سورية ، حتى في شرورهم وأكثر مثالية ، فالسجان الذي يجلد السجين ثم تزداد همته عندما يلحظ اقتراب رئيسه منه فيزداد في شدة جلده للسجين ، والمخبر الغبي الذي يفشل في الحصول على معلومة عن الهدف المكلف بمراقبته ، راكان الحسيني الذي تم نقله إلى فرع الأمن لطلاقة لسانه ,حينما قال كلمة في حفل زفاف صديق له ، يكلف بمراقبة المثقفين والفنانين .

علاوة علي أنه مفوه كان قادرا على أن يفهم أساليبهم وستكون قدرته على المراقبة وجلب المعلومات أكثر من أي شخص آخر ، فإذا به يقع في عشق الفنان الهدف الذي يراقبه ، ويصادقه ويساعده على الهرب ، وإذا هو يهوى صديق الفنان فتكون صداقته لنورس النبهان وأنوار ورسام الكاريكاتير والعازف ، ويضحي بكل شيء من أجلهما ، بل يقتل في النهاية برصاص الأمن ، كما قتل نوار العازف
لا يتورع رجل الأمن عن استخدام كافة الوسائل للوصول إلى أهدافه ، ليستخدم راكان الحسيني جارته وصديقته ناريمان في التجسس على الفنان ، وحينما قبض عليها ,عذبت وقتلت ، يتعلم راكان الحسيني دروساً جديدة غير التي لقنها إياه والده والذي رسم له طريقه كضابط ، وقد أوصاه أن ينفذ انقلابا ثم يسلم السلطة للشعب بعد ذلك ، وكان ذلك بناء على وصية الجد الذي كان دركيا عند الفرنسيين أثناء الاحتلال ، والأب الذي كان مسئولا عن دائرة المواليد والوفيات ما بين الدونية والاستعلاء دونية الدركي واستعلاء مسئول الوفيات الذي كان يرى أن لا أحد يمكنه المجئ للحياة ولا مغادرتها إلا بإذنه ! .

لكن شيئا ما ربما شجاعة نورس ، ربما فن نوار ، هل كان للزوجة المخلصة التي تتوارى شخصيتها تماما في الرواية ولا تظهر دورا ما خفيا ,كاختفاءها الملحوظ ,وإهمال السرد لوجودها؟ ,
هل هو نهر العاصي الذي يسير عكس أنهار العالم ينبع من الجنوب ويسير إلى الشمال .
هل أيقظت ثورة الشعب في الرستن شمال حمص وجنوب حماة وبها سد الرستن بناه عبد الناصر المكنون الإنساني لدى راكان الحسيني ؟ .

ربما كل هذا مجتمعا ، وربما هذه المصادفة البحتة التي تجسدت أمامه بأن نورس ونوار وناريمان كلها أسماء تبدأ بحرف النون ، في حين ينتهي اسمه راكان بالحرف نفسه لنتساءل معه ، وربما يثلج صدورنا أن نهاية اسم رجل الأمن بداية اسم الفنان .
بلغة مكثفة في لغة إيجراما ناعمة يطلق صيحاته المكتومة " الطغاة جبال نحن ذراتها ، ولو كل واحد منا رفض أن يكون ذرة لأنهار الجبل " .

لتكون إيجرامة طرح السؤال السياسي الذي اتخذ شكل إجابة تقريرية قادرة على كشف ما ألغز علينا ، وكأنها تكشفنا أمام أنفسنا وتعري ذلك العجز العربي والخزي الذي أصبح جزءً من جين خبيث لم

تستطع سوى ثورات الربيع العربي التخلص منه ، كأحد أهم منجزات هذا الجيل ، الذي لم تعلمه مدرسة ولم تلقنه جامعة ، إنما اخترعته عبقرية فضاء الفيسبوك الذي سمح به النظام القمعي السوري ، تشبها ببعض الأنظمة العربية ، ورغبة منه في اظهار التسامح ، فانقلب السحر على الساحر ، ليعانق إيجراما وربما كانت أكثر سلاسة وقوة تعلو شاعريتها على قصائد عديدة ، الحرية إذا جاءت ، خبزت لها أمهات الشهداء قرص الشمس كي تولد الحياة من جديد .

ويجتر رجل الأمن ذكرياته نادما على ما ارتكبه من جرائم وسفك دماء وتعذيبه للأبرياء في الزنازين الضيقة ,واستخدام كافة وسائل التعذيب من صعق كهربي إلى جلد فيقول : أجلس الآن وحيداً ، كآخر عنقود يتدلى ، مستوحشا ، بعد أن تركه الحصادون معلقا في عريشة الزمان ,لأن عصافير المساء ثقبت حباته ، فلم يعد صالحا لشيء .
ليس الآن لدى ما أفعله ، سوى استرداد ذكرياتي من دفاتر الوقت الذي مضى .
قرر راكان أن يجلد ذاته متفردا وأن يكفّر عن ذنبه وأن يطلب الغفران من الشعب الذي طالما كان يمثل له الرعب ومجرد ذكر وظيفته كانت كفيلة بان يسقط الإنسان مغشيا عليه ، فيقول : لدي الضابط شعور بأنه لن يجد عملا ، في ما لو لم يعثر في حياة الناس على ما يدينهم ، ويقول : " لوأردنا اعتقال أحد ، هل نحتاج لمبرر " .
إلا أن الروح الشفيف الذي بداخله كان يوجهه إلى كعبة الإشراق ورغم كل الرهبة التي منحني إياها عملي في الأمن ، إلا أنني شعرت بضآلتي أمام الفن "

من الطبيعي في هذه الأجواء الثورية أن يكون الموت هو المخيم الذي يسكنه أهل سوريا ، وأن يكون هو الواقع الفعلي ، وأن يكون مقدما على الحياة نفسها طوعا أو كرها ، فإما تموت حتف أنفك مقتولا أو مذبوحا على أيدي قوات النظام أو مقاتلا شجاعا زودا عن أرضك وعر ضك وثورتك فيموت البطل راكان ويموت البطل نوار وتقتل ناريمان معذبة بيد الأمن ، فيتولى نورس النبهان استكمال السرد .

تتبدى قدرة الكاتب على أن ينقل العصا من يد إلى أخرى في سلاسة سباقات التتابع , دون أن تشعر بخروج اللاعب وتسلم زميله العصا ، يتسلم نورس النبهان رسام الكاريكاتير – البطل الحقيقي للرواية – الخيوط من راكان المقتول ، ليتحدث عن قصته هو .

الجزء الضئيل المتبقى فعلا من الرواية ، ليتحول على مستوى الكم إلى هامش لمتن كان يملؤه راكان الحسيني ، وربما تتوقف عند هذا التكنيك كثيرا , فليست هذه متتالية قصصية ، لكنها رواية مكتملة العناصر ، كيف للبطل أن يموت قبل أن يكمل حكايته ؟ وكيف للمروي عنه – البطل الحقيقي – تسلم الخيط دون أن يشعر المتلقى بالفارق أو بأي خلل ؟ ، إن "تون "الحكي لم يتغير وايقاع الرواية لم يبطئ بقدر كونه اقتران من ختام قصيدة أراد صاحبها أن يقول أبياتها الأخيرة بصوت شديد الإنخفاض .

قرأت ذلك كله بشكل مغاير تماما ، لسرده ، في الحقيقة أن نورس كان هو الذي يحكي قصته ، ربما أتعبته الثورة وأراد أن يطل على الحكاية من بعيد ، فترك للبطل الوهمي – رجل الأمن من الطراز الأول يتقمص شخصيته ويحكي القصة – ربما كان الراوي مثاليا طامعا أن يكون العالم كله نورس

ونوار ، نوار الذي كان يشتري العصافير بأقفاصها ثم يقترب من مغرزة الأمن ، ويفتح الأقفاص ويطلقها ويتعجب من تباطؤ بعض العصافير التي خرجت توا من القفص فلا تطير فيضحك نوار قائلا : العبودية تكون أحيانا طواعية ! .

ذلك التحول في السرد والتحول من راوٍ إلى آخر ,لكن في تصوري تكنيك كتابة أريد به التحرك عبر أكثر من زمن ، وكشف سكيزوفرينيا كثير من رجال الأمن ، واكتشاف المسكوت عنه في نفوس الرجال ، متحولا من قصة راكان إلى قصة نوار ، دون أن ينسى حكايا ناريمان ومرام حبيبته عبر الماسنجر ، التي كان لها كبير الأثر في التحول الذي طرأ عليه .
" ألم تقل لي يوما أن الناس صنفان ، نوع هو بحيرة راكدة ، والآخر هو الحصى الذي يحرك هذه البحيرة ، وأنت تفضل أن تكون من صنف الحصى "
ويقول راكان " لقد حولني حب مرام إلى حنفية ماء بيد طفل يتوضأ بالحنان " ويقول " كنت أداري حبنا بحرص محارة على لؤلؤتها " .

لم يكن في الحقيقة سوى نورس ، بل هو نوار أيضا ، لقد تكلم لغتهم ، واستهلم أسلوبهم وكما هي معهم ، في فكرة أشبه بالتناسخ وإذا كان الكاتب لم يرد لشخصياته أن ترتدي قناعا ظاهرا ، فإن راكان هو قناع نورس ونوار وناريمان ! .

لم ينس ذكر التفاصيل الصغيرة ,التي قد تبدو شيئا عارضا ,لكنها في الحقيقة إحدى فضائل هذه الشعوب الثائرة ، التي يتجسد داخلها كثير من القيم والمبادئ والأخلاقيات ، فبالرغم من نصيحة نورس – الذي كان يترددعلى مصايف دمشق ,كالربوة والزبداني وبلودان – نصح راكان قائلا " إذا أردت أن تعيش حياة مترفة ولكن بشكل انساني, اشرب قهوتك كالأثرياء ، ولكن تناول طعامك كالفقراء " .

ورغم ما يشبه الحياة المترفة هذه ، نجد أن القيم والمبادئ التي ردها الراوي فيقول " فوجئت بأن نورس مازال يحتفظ بعادة قديمة يقوم بها أهل حماة حين يدخلون إلى البناية التي يقطنونها ، فتنحنح بصوت مرتفع ، بينما خرجت أنا " ياالله ..في حدا ؟... إشارات الكاتب إلي المثل والحكمة والطرفة , العادات والتقاليد التي هي طبيعة أهل البلد :- أيلول طرفه مبلول , مشروب الحلبسة الذي يقدمه السوريون للضيوف .

لقد فاجأ الوريث الشاب طويل العنق نورس في معرض كاريكاتير ، دخل الوريث دون حراسة مرتديا بنطلونا وقميصا بعيدا عن الرسميات ، كان ظريفا وبسيطا ، كان ذلك قبل توليه الرئاسة بعام – وكان قد استفحل المرض العضال بوالده الرئيس الأب – صفق له الحضور ، كانت تسبقني الدهشة وكان يغمره الزهو ، بكونه الرئيس المرشح الذي سيغير الصورة النمطية التي سادت إبان حكم والده ، تقدم نحوي وسألني :- هل نشرت هذه الرسوم بالصحف من قبل ؟ أجبته بالنفي ,ولم أذكر كلمة رقابة التي كان من الصعب التحدث عنها في ذلك الوقت ، فراح يتحدث بإسهاب عن حرية الصحافة وضرورة أن يتقبل المجتمع فكرة النقد .
ثم توطدت العلاقة بيننا ,وكنا نخرج في مشاوير بمفردنا في سيارته ، لفت نظري في تلك الآونة ,أنه لم يكن يهوى أن تعلق صوره في الشوارع ، ورأيته مرة قبل أن يصبح رئيسا ,وهو يزيل صورة له من واجهة أحد المحلات ، كان يحدثني عن مجتمع مدني ومحاربة الفساد , ربما أن الأشخاص الذين تحلقوا حوله بعد أن أصبح رئيسا ساهموا في تحويل مسار عقليته .

هكذا يتم إفساد الحكام ، عندما يتحلق حولهم المفسدون ,لحماية فسادهم المالي والسياسي ، فالناس هم الذين يصنعون الطغاة ، لقد تشكلت لديهم صورة نمطية للحاكم ، لا يريدون غيرها ، صورة هتلرية ، تعوضهم عن ضعفهم النفسي ، الأشخاص الذين يضعون في اعناقهم أطواق العبودية طواعية ، سيشعرون بمهانة كبيرة حين يتحررون .

هكذا كان يحكي نورس لأم راكان ,التي استقبلته كسيدة قوية ملقبة بسيدة الحكمة ، مقدمة له شراب المليسة الساخن ، ذلك النبات الذي يزرعه أهل حماه في أحواض داخل بيوتهم أحيانا .

لقد دفع راكان لكتابة الحكاية جملة استقاها من رئيسه في الأمن حينها ، عندما استبطأه في كتابة التقرير متسائلا أتكتب تقريرا أم تؤلف حكاية ؟ فأوحت له هذه الجملة بكتابة الرواية بالفعل ، وعقب وفاته ,كانت مرام هي التي حثت نورس على استكمال الرواية وإخراجها للنور ، كما كانت فقرة كتبها راكان في مخطوطة يحث نورس على سرد حكايته مع الرئيس ، فأحس نورس بأن الأمر يشبه الوصية وأنه يجب نشرها ، وكذلك كان رجاء مرام لنورس بفعل ذلك .

استغل الكاتب عقدة الذنب لدى رجل الأمن ، ورغبته في التطهر عقب اندلاع الثورة ، واستطاع عبر ذلك كتابة قصة الشعب السوري المقاوم مستعرضا إباء وقوة رجاله وجيشه الحر وشرفاء الوطن ، الذين ضحوا بالغالي والنفيس من أجل حرية الوطن ، فمن المعروف أن الاعتراف هو نوع من التطهر ساعد على حدوثه تأجج الثورة وصداقة راكان لكل النفوس الذكية مثل نورس ونوار وناريمان ، فكان للفن دوره الكبير في عملية التطهير التي تعد تطويرا للفكرة سابقتها , رأس الرجل الكبير .

لم تنته الرواية ، ولم تكن هناك نهاية تقليدية ، لكن دائرية السرد أحالت إلى إبجرامات شفيفة .
" امتزج ضوء الشمعة بزرقة الفجر الذي بدأ يطل من نافذة الصالة ، التفت إليى العسكري ، كان لا يزال واقفا عند المدخل بإنتظار أن أضئ له الطريق ، اقتربت منه بمشية نورس عاد إلى فضائه السحيق ، بعد أن شفيت كسور جناحين من ارتطامها بشباك صياد همجي ، مددت له يد وسلمته مفتاح الصالة ، كما لو أنني أسلم مدينة لأهلها بعد طرد الغزاة " .

" إذا سألك الزائرون عني في غيابي ، فقل لهم أنني سأعود "
بالرغم من كون هذه الجملة هي ختام للنص ,إلا أنه يشي بصيرورة الوجود ، وأن النضال من أجل الحرية لا ينتهي ، ولا سقف له ، عبر ذلك الوعد وقل لهم أنني سأعود ، وكيف لا ولقد كان هناك توفيق كبير في اختيار الأسماء ، نورس ذلك المسافر أبدا المحلق في الفضاء .

لا يمكن أن يمر نص كهذا دون أن يستوقفك الكثير من إشاراته ، ودون التوقف عند لغته شديدة الكثافة التي تحمل العديد من المضامين ، والتي آثر كاتبها أن تكون هادئة تماما ، لكنها عاصفة تحمل ثورة نهر كالعاصي ، يسير في الاتجاه المعاكس ، ليكون وجوده وحده ثورة في حد ذاته
سر يجبرك على القراءة في جلسة واحدة متشوقا لاستكمال الرواية دون توقف ، فهي تجبرك على الاستمرار حتى حرفها الأخير ، فقد طرحت أسئلة الثورة ، وأكدت الصراع بين السلطة والشعب بين الحاكم والمحكوم ، وسعى الشعوب الدؤوب للانعتاق, متمثلا في فنان ، لم يأبه للقهر وظلمة الزنازين، كان الكاتب بارعا في التحرك عبر الأزمنة والأمكنة ,كان يحركها داخل الشخوص أكثر من تحريك الشخوص داخلها , غوصه في سيكولوجية شخوصه ، واكتشاف مثالياتهم ورومانسيتهم -رغم قسوة واقعهم- ليؤكد أن الغد مختلف وأن صانعي الثورة قد يكونون جزءا من هذا الشعب

لكن لهم مواصـــفات مغايرة ، هي وحدها القادرة على التغيير ، تمنطق الكاتب ببلاغة الإقناع والتحريض الناعم ، محركا الشـــعور الثوري ، دافعا بعواطفنا لمربع الثورة ، بالرغم من كونه لم يهول المشاهد ، حتى أن استشهاداته على بشاعة النظام الحاكم كانت صورا مزجاة دون تحريض فج ، كصورة الأم القتلى التي كان رضيعها على صدرها ونظرا لكثرة صراخه كانت النساء تلقمه صدر أمه أياما ثلاثة .

للكتابة القدرة علي التحريض الفكري , ولها من العبقرية أن تغير الواقع , ومثل هذه الروايات القدرة عل فعل ذلك تماما.

البللورة السحرية

حين يذكر اسم المماليك ، تتجه الأنظار إلى الأوضاع الثقافية والأدبية في ذلك العصر خاصة، لذا فإن هذه الدولة ترى ضعيفة هشة يمر كثير من المؤرخين على سيرتها مرور الكرام ، لكن القارئ الجيد لهذه الحقبة يجد أنها كانت مرحلة فارقة في التاريخ المصري والعربي والإسلامي ، فلقد أبلى المماليك ورؤساؤهم بلاء حسناً ، بصد الغزو المغولي والتتري على الشام ومصر في (عين جالوت) 1250م ، كما قضوا قبلها على آخر معاقل الصليبيين في الشام 1249م ..

أما القاهرة فكانت مركزاً رئيسا لكل حركة تجارية واقتصادية بين الشرق والغرب ، تلك الدولة استمرت أكثر من مائتي عام ، استطاعت صد الغزوين العظيمين للمغول والصليبيين ، وانتعشت مصر والقاهرة ، حتى صارت قبلة التجار الذين وجدوا فيها سوقا رائعا ، وكانت تجارة كتجارة العبيد والمماليك أحد أكبر أنواع التجارة التي طمع من خلالها كل من يعرف طريقا إلى مصر .

تمكن المماليك من السيطرة على مفاصل الدولة الإسلامية بكل أركانها ، فكانت لهم سيطرة على الحجاز بما فيه من مقدسات إسلامية لا تقبل القسمة على إثنين .
يختلط علي البعض مصطلحا العبودية والمماليك ، ربما بقترب المصطلحان ، إلا أن للمماليك خصوصية تميزهم عن غيرهم ، فهم شئ وسط بين العبد والحر ، قد يكونوا فرسانا تم أسرهم في حرب أو كانوا أطفالا خطفوا صغارا على يد قطاع الطرق واللصوص أو سبايا إلخ .

ليس المماليك عرقاً أو جنساً واحداً ، ولم يكن لهم موطن أو جغرافيا جامعة لهم ، ففي حين كان معظم السود موطنهم أفريقيا ، كان المماليك مواطنين عالميين ، ربما كانوا أول من آمن بالعولمة أو آمن لهم بالعولمة غيرهم ، فهم اجتمعوا على فكرة وتنادوا بها وطبقوها ، وربما الجيل الأول والثاني لم يكن يحلم بما وصل إليه الأبناء والأحفاد .

لقد كان المملوك تركياً أو مجتلباً من آسيا أو مجتلبا من أوروبا – وهذا هو الأكثر غرابة – أن بعض المواطنين الأوربيين كانوا يبيعون أبنائهم دون ضغوط ، كي يذهبوا إلى بلاد الرخاء كالقاهرة ، وكان نجم الدين أيوب أبعد نظراً ,فكان يشتري الغلمان خصيصاً ويعلمهم امتشاق الحسام والرمح فاحتضنهم وصار لهم بمثابة الأب والمعلم ليضمن ولائهم المطلق حتى أطلق عليهم المماليك الصالحية النجمية نسبة إليه .

لذا فالفهم الشائع عن كون المماليك رقيقاً ليس صحيحاً على أرض الواقع بدرجة كبيرة ، فلم تكن روابطهم روابط العبد بالسيد بل يمكن القول أنها طاعة الجندي لضابطه بالخدمة العسكرية,أو طاعة التلميذ لمعلمه,فهو أستاذ لهم كان المملوك يتعلم القراءة والكتابة العربية ثم يتعلم القرآن والفقة الإسلامي وآداب الشريعة ، لذا كان العلماء محل تقدير منهم ، وكان هذا العصر شاهداً على علماء أفذاذ وفقهاء أفاضل ومريدين ثقاة وأئمة جهابذة ومشايخ أجلاء مثل :
العز بن عبد السلام وجلال الدين السيوطي وتقي الدين المقريزي وابن تغري بردي وابن حجر العسقلاني وابن قيم الجوزية وابن الخطيب وابن إياس وابن بطوطة وابن تيمية وابن خلدون وابن كثير والقلقشندي والمواردي وغيرهم ..... (1250 – 1517 م).

وما أن ينتهي المملوك من تعلم الفقة والشريعة ، إلا و ينخرط في التدريب والقيادة والتربية العسكرية ، وكان لديه الطريق مفتوحة ليكون قائداً كبيراً لمجموعة أو حتى لجيش من المماليك

كما كانوا ينتسبون إلى السيد أو الأستاذ الذي افتداهم بماله ، فمنهم المماليك الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب ، والمماليك الكاملية نسبة إلى الملك الكامل وهكذا ...

وتأتي" أميرة المماليك"- رواية أبي نصير- عثمان ، نوعا من الفضول الذي أصاب الكاتب رغبة في اكتشاف حقبة مجهولة من التاريخ الإسلامي ، تزداد غموضاً وتشوشاً في أذهاننا ، فلا يعلم الكثير عن هذه الحقبة شيئاً ، بالرغم من كونها فاصلة وفارقة ، وقد حدث ذلك ، لكون أن هذه الدولة تتابع على حكمها الكثير من الولاه والسلاطين ، فيرصد الباحث أكثر من 29 واليا وسلطانا في فترة لا تتجاوز المائة والخمسين عاماً ، بمعدل قد لا تتجاوز عدة أيام لأحدهما ، كما تقزمت بعض الإمارات حتى أن مساحتها لا تتجاوز مدينة صغيرة .

هذا التاريخ المجهول والمشوش ساهم كثير من المستشرقين وكثير منا في هذا التشويش ، فالدولة التي أوقفت الزحف التتاري والمغولي والصليبي ,لابد أن تطمس معالمها حتى لا تكون أنموذج الصمود .
لم يشأ الكاتب أن يعيد كتابة تاريخ تلك الحقبة ، أو يصدر لنا موعظة أو نصيحة ,إنما غلف رؤيته في دثار فني ممتع ، وما زاد في إمتاعه دهشة الكاتب نفسه وانبهاره بكل مفردات وتفاصيل الحياة اليومية لهذا العصر ، ولم يكن الكاتب أنانياً ، حيث أراد أن يشركنا معه في تلك المتعة فلم يبخل علينا بوصف ، بل تزيد في بعض المواطن, التي ما كانت تستتحق كل هذا الإغراق في التصويروكأنه يمسك كاميرا فيدو ينقل لنا صوتا وصورة كل ما يجري هناك .

استعرض الراواي سوق النخاسة والنخاسين والسلعة والمزاد متحدثاً عن السلعة وفقا لجاذبيتها وحسنها ، كما في عيني مَن سيختارها مِن أثرياء وأمراء وقواد وتجارة ووسطاء ، لتثمين البضاعة ورواج تجارة اللحوم البشرية ، فالمشهد الذي كان يجب أن يستغرق سطراً أو سطرين عمد إلى الاستطراد فيه حتى بلغ عدة صفحات ، وكأنما يريد أن يستعيد كل ماكان , بآلة الزمن إلى هذا العصر المدهش الغريب...

يتميز الكاتب المتفرد بقدرة على السخرية ويملك قالبا فانتازيا يستطيع صب كل ما في جعبته بداخله ، يجعلك متحيرا منه ومن عفوية سلوكهم وسلوكه ، وقيمه وقيمهم ، يتماهي الكاتب والراوي ، حتى لو ان البطل أنثى تدعى (جلبهار) ,هل يملك الكاتب بللورة سحرية ، أو لديه طاقية الإخفاء ؟ ، هل هو ضمير هذا العصر الحقيقي ؟ تلك الشخصية البريئة الساذجة الشديدة العمق ، التي لا تعرف قبضا على مكوناتها ومكنوناتها , زئبقية الوجود (كلما اقترب منه فر ، كما يقول جار النبي الحلو !) ..
لا تدري على وجه اليقين ما يرغب الكاتب ولا البطل في قوله ، إلى ما يرمي ؟ هل يرمي بشرر ؟ أم هو دونكيشوت مدينتنا ، أم أنه حمامة زوسكيند ؟ .. تجمع شخوصه ,كما شخصيته كافة المتناقضات ، والغريب أن كفتيه متأرجحتان لا تعلو إحداهما عن الأخرى شيئا يذكر ..!!..

(جلبهار) مملوكة تشبه الذات الساردة الثرية ، أحلامها تشبه الواقع وواقعها حلمي التكوين .. لا يمكن القبض على قيمة ما .. أو توجه أو خطوط تشي بإيديولوجيا ما ، الرغبة والواقع والصدفة يلعبون كالبحر ، (جلبهار) تحب بالصدفة ، ويفارقها الحبيب الجبان دون مبرر ، وتختطف هكذا مجانا ,ثم تحكم دون ثمن حقيقي ، لا تتطور حياتها بإرادتها ، ولا تملك مفردات هذا التطور ، وإن كان جمالها وحسنها ,هما أهم هذه المفردات ، لكن -عكس حكمها -، فهذان قابلان بأسهمهما للهبوط وليس الارتفاع .. فهما مقياس زمني قصير المدى ، يتتبع الكاتب تقلب (جلبهار) من يد ليد

يمارسون عليها نفس القهر الذي تمارسه معهم بإزدواجية غريبة ,تصل إلى حد السكيزوفرنيا ، فهي تحيا نمط الاقتراب / التحاشي! فهي "تسبقه إلى المخدع صاغرة ، فتحت ذراعيها مرحبة ، مُيسرة لابن الغجر قضاء وطره منها ، وفي حسبانها (صـــ29) أنها تدفع بذلك ثمن حريتها الهاربة .. في سماوات الغيبوبة .
هل هو تيار الوعي الذي يحرك الكاتب ؟ يترك كلماته للريح تعصـــف بها كيف تشـــاء ؟ يترك شـخوصــه لأمواج عاتية تلعب بسـفنه كما تهوي ؟ قد يكون ذلك أسـلوبا يهيئ القارئ لسـكيزوفرنيا التلقي ، وقد يكون غطاء لكتابة بسيطة , مثل لوحة من لوحات الفن التشكيلي تدعي السريالية لعلها تشفع لفقرها الفني أحيانا .
لم يلعب علي أوتار تكنيكات سـرد متباينة ،فهي " حكايا تجتذب قارئ بسـيط يريد أن يتسـلي كثيرا ويطلع علي بعض الحقائق , عبر تاريخية بســيطة , قارىء يهوي هذا الخيال ,ويرغب في هذه العبثية ، حتى لو كان في السبعين ..

يعتمد الكاتب خطا دراميا يتخذ دائرة مكرورة فهو يضـــع (جلبهار) في دائرة العبودية ، ويتحدث عن كل تفاصـيلها ، ثم ينتهي بفقدانها للحلم واسـتيقاظهامن عسـل الوهم إلى عفن الحقيقة ,ثم يدخلها إلى دائرة أخرى تبدأ بنخاس يمارس الطقوس عينها ، والأفعال نفســـها لتمارس (جلبهار) نفس الوهم لتفيق ، وتتكرر الدائرة بحذافيرها ، فهذا هو تكنيك كتابته ...

يتحدث الراوي العليم فيحرك الأحداث كما تتراءى له ، يمنح الشـخوص سـيكولوجياتهم وتفاصـيل حياتهم ، يحركهم كما يريد أو كما تخيلهم ، وينهي تجربتهم كما يشاء ، ويخبرنا عنهم ما يريد ....
تقع (جلبهار) في نفس الأخطاء ولا تغير طريقة التفكير ، ربما يطور شخصيتها قليلا لتحقق بعضا مما أراده فيجعلها أميرة ، تتحكم في المماليك وتمســك بالأختام ، لكنها لا تحقق حلمها الكبير كما حققته شجرة الدر مثلا.
استعار بعضا من صفات سندريلا المطلومة الفقيرة المستضعفة ، وربما كانت الكتابة صدى باهت للقراءة التاريخية .

تاريخية الرواية :
اعتمد التاريخ مرجعاً أساسياً في كتابته الروائية ، وكان ينقل نصوصاً شبه كاملة لمؤرخين معروفين ، فاستعاد ابن إياس على سبيل المثال ، حتى أنه كان يعرض علينا شروحا تعج بها مثل هذه الكتب , وكأنه يريد تلقيننا درس التاريخ ، وشـــرح لنا الطقوس والألقاب شـــرحاً تفصـــيلياً ليعرفنا جذورها ومنابعها ، فيشـــرح – عبر روايته – معنى الأســـماء والرتب والوظائف ، فمن هو الباي والباشـــا والراكب دار والأتابك , ثم (جلبهار) وطولهار وخوند لم يترك شـاردة ولا واردة حتى شـرحها ، علاوة على ثبت من المراجع والفهارس التاريخية ، لذا يحق لنا التوقف والتأويل عن مدى مشروعية فعل ذلك ؟
علاوة على الإخراج الغرائبي للغلاف أو فيض الكتابة ، أو حتى تقسـيم الفصـــول فهناك فصـــل لا يتجاوز بضعة أسطر (الرواية ص 53-60-130-133) ، يتغير تكنيك الرواي المجدد تصاب (جلبهار) بفصام فيجعل من شخصيتها شخصية (عزيزة) وكذلك الجارية (جلشان) ويجعلها (جليلة) ، كل شـخصـية من هاتين الشـخصـيتين تحاكم الأخرى في سـرد مفاجئ ,لم يكن يتوقعه القارئ ، مما أضـاف نوعا من الإيجابية في تطوير الشـخصـية ، وإن قد جاء متأخرا لشـخصـية في ذكاء (جلبهار) ،كما أضـــاف المونولج الداخلي لعزيزة – جلشـــان ,جليلة) مما لا يمكننا من تجاهل

الإثارة والمتعة والرغبة في الدخول إلى هذا العالم المجهول لنا ، والاســـتطراد في القراءة للتعرف على المصير الذي تواجهه الشخصيات .

لم ينس الراو العليم تنويع سرده بتقسيم جزء من سيرة (جلبهار) أو (عزيزة) لعدة أهلة ، يستقل كل هلال بنفسه ,ثم يشتبك بالهلال التالي ، لكن الغريب والمفارق ثانية هو احتفاظ (جلبهار) بنفس النضارة والقوة رغم تقدمها في العمر ، شبابها وجسدها يظلان مفتاح اللعبة دون تأثير للسنين ، مما يجعلك غير قادر على تصديق السرد إلى نهايته .
يضفي الكاتب المتدفق من روحه وشخصه الظريف على شخوصه ويمنحهم وجهة نظره ، فنجد ذلك في الحوار الذي تم بين (جلبهار) (عزيزة) و (جلشان) (جليلة) ,
فتلجأ (جلبهار) إلى قاعة يغلب عليها اللون الأصفر .. فتقول :

- المماليك لا يملون التمرغ في صـــفار الكون نهاراً وليلاً ، ويبحثون عما يذكرهم بالذهب الأصفر الرنان .
- يامولاتي دون الذهب لن ينفذ أي عمل ، لا الجند ســـيطيعون الأوامر ، ولا الأغاوات سيحافظون على السلطة ، أعط المملوك ذهبا فيقدم لك روحه على طبق . فتسخر جلبهار ,من ذهب أيضا
- حتى وسادة شعرك ياسيدتي مغطاه بكسوة ذهبية ...

ويستمر في إضفاء ذاتيته ورغبته الملحة وكأنه نوع من الوسواس القهري – في الهلال العاشر صـ 182 – يتفوق على ابن إياس ، قائلا :-
أتابك العسكر بدر الدين بن بهاء الدين بهي الدين بن جمال الدين حتى يصل بالنسب إلى السطر الخامس فينسبه إلى البرقوقي الخاصكي ، في الهلال الثاني عشر يذكر نسب خواجا ناصر الدين وخواجا برهان الدين والأمير الظاهر يحيي إسماعيل .. في النهاية يمكن الإشادة بتدفق السرد والقدرة على الوصف والغوص في التفاصيل ، مع تقديم حقبة تاريخية هامة ومجهولة من تاريخنا الذي أصابه التزييف.

الأسطرة والتخييل في أومشاه
ضاقت أساطير العالم ، فاخترع النوبي محمد وهبة أسطورته الخاصة

الكاتب عادة يكتب نفسه ، ويتأثر برؤوس الأسهم الصادرة منه ، المرتدة إليه , وإن كان يتمتع بقدر من الوعي ، ومزج تجربته الفنية بواقعه المعاش ، وبذلك يتشكل الصدق في روايته , هكذا تحدث ماركيز عن معنى الكتابة وهدفها ,واصفا في كلمات شديدة الإيجاز مفهوم الصدق الفني والواقعي أن يكون هذا الوعي بالكلام أو الكلام الواعي هو منهجنا الفني أو على الأصح المبدأ الذي ننطلق منه ، ولا أعني "نا" هذه التضخيم وإنما أعني كلا من كاتب هذه السطور والروائي وأضرابنا فهذه نوعية من الأدب تمثل أدب الالتزام .

فالأديب يحمل بين جنبيه هواجسه ,ووساواسه وتتمثل أفكاره كائنا حيا يدب على الأرض ، لا يستطيع ، حين يريد أن يصفه لنا أن يرتكب حماقة التزوير ليجمله ، وفرية الكذب ليحقق مكسبا ما كما يفعل أخرون كثيرون ,لذا فإن حياة رواية أو قصة أو قصيدة ما أو أي عمل فني ربما كان في نظري مرتبطا بالسطور الثلاثة الأولى التي صكها ماركيز ، ليمنحها مفتاح الحياه كأشخاص من خلال إبداعنا الذي يشي بنا ، مثل صندوق أسود عقب تحطم الطائرة وانتهاء عمرها الافتراضي والفعلي ، واحتسابها ماضيا لم يعد له وجود .

وإذا كانت أسطر ماركيز السابقة تمثل افتتاحية هامة للولوج إلى عالم الأديب ، فإن عنوان الرواية قيد القراءة " أو مشاه " وهو عتبة أخرى للولوج إلى النص ، فالعنوان (أو مشاه) الذي صيغ بحرف نوبي , يعني بالعربية "صرخة في وجه الشمس" ، وإذا كانت الدلالة الأولى في الصرخة تكاد تكون معروفة إلا أن " وجه الشمس " قد تتعدى دلالاته التي تفتح أفق القراءة – الرؤية على مصراعيه – فالشمس هي المعبود القديم الذي تؤمن بقدرته على أنه يمنحك كل شئ ، كإله بكل ما تحمل الكلمة ، هل الشمس هي المجتمع الذي نحياه , هل هو معبود مقدس متغلغل في حضارة الجنوب التي ملكت الإمبراطورية يوما ما ؟ مازال الحلم النوبي يراود أهل النوبة ، وهل مازال لديهم نوستالجيا لم يبرؤوا منها بعد ؟!.

إن نوبية الرواية لشخوصها وأماكنها وأحداثها وزمنها وقدرة الروائي ، تجعلنا نلهث عند القراءة نحاول أن نتواصل معه ، وأن نكتب معه ، لا أن نقرأ فقط ، ونشفق على أبطاله أحيانا ، وعلى بطله الرئيسي في كل الأحيان ، الذي حمل عبء مجابهة العدو وحده ، رغم عشرات الأبطال الذين يمكن لهم أن يمارسوا نفس الفضيلة ,ولكن حلم الفارس الأوحد القادر على الإنقاذ ، المخلص الذي من خلاله يمكن للبشرية التطهر من أوزارها .

هي فكرة المخلص التي تمثلت لنا حلما في الستينات ، بشرا سويا – لاحظ أن بطل " أومشاه " ماهر " – " ناصر " ذلك البطل الذي يتحمل ما لا تتحمله الجبال ، بطلا غير أسطوري التركيب لكن اسطوري الإرادة ، لديه إخلاص ورغبة في تحقيق أحلامه ، وأحلام الآخرين ، إنه " بابا نويل " الشعوب ، الذي يأتي بالحلوى والهدايا أيام أعياد الميلاد ليمنح السعادة للبؤساء والمحتاجين ويدخل على قلوبهم السرور , لكن بطريقته الخاصة.

استطاع ماهر القضاء على الوحش الذي هاجم بلدته فقتله ، بعد أن صرخ في وجه الشمس تمردا أو طلبا للمساعدة ، استخدم الحيلة بعد أن فشلت العصبية ، واستشار أقرانه حتى أشاروا عليه بخدعة نجح من خلالها بالتخلص من العدو المتربص بأبناء بلدته ، رفض ماهر – ناصر المساعدات

خارجية وأصر على تحرير البلدة "بمفرده " ، قائدا مجموعة صغيرة من المخلصين – أهل الثقة – الذين للأسف ، تم اصطيادهم ، واحدا تلو الآخر ، حتى تبقى " ماهر " الذي هزم الواقع واستطاع أن يعود بالإنتصار لأهل بلدته ، ليتزوج محبوبته الجميلة وليكون جديرا باللقب .

كانت اللغة – الفكرة هي البطل الرئيس لأوماشاه ، وكانت الكلمات النوبية المكتوبة بالحرف العربي سيدة المشهد ، لتضفي المزيد من الإثارة والغموض والجدة للرواية لقارئ غير معتاد على قراءة كلمات كثيرة بغير لغته العربية عادة والمفاجأة بثقافة وثيقة الصلة بثقافته ، ولنفهم معنى وجود لهجات أخرى ، تحيا بيننا ، وكيف لنا أن نتفهم المعادلة الصعبة ، بين كونه آخرا ، وكونه منا وهو الذي ربما كنت أعنيه ، أو أعني شيئا قريبا منه ، في أحد الأسطر التي كتبتها ، "أنت تشبهنا ولا تشبه أحداً" فكرة الخصوصية ، التي يجب احترامها ، هذا الذي يبدو في لغة جلية ، حينما صرخ ماهر في وجه الشمس " نورانجا .. فرجر ... نورانجا فرجر " أي أريد نورك أريد نورك ، ثم لف نفسه سبع دورات في دلالات غير خافية للرقم سبعة ، الأرض سبع ، والسماء سبع ، وأيام الإسبوع سبع .

هكذا كان التأصيل في الرواية لأولاد كوش وشباكا وشبتاكا وتانوت والتأصيل لقصة ماهر الذي أحب أونتي بجنون ، ولم يعد ليحتضنها إلا بعد أن قضي على الوحش العدو المتربص بنا ، بعد أن ظل يتربص به أياماً وليال ، متحدياً له ومتوعداً إياه " سدوا ,إري , الدوكر , أي اين أنت , تعال هنا , إظهر ".

بالرغم من أن ماهر – جمال عبد الناصر " استطاع أن يسد ما تحدب مشا" أي يسد عين الشمس ، إلا أن عقربا صغيرا ، عدوا بسيطا جنوبيا هذه المرة استطاع أن يسرق الحلم ، وأن يطفئ الشمس ليقتل ماهر البطل ، قتلة لا تليق به ، وغير مبررة إلا في وطننا العربي هذا

ربما كان هذا هو وهم صراع الشمال / الجنوب وإننا نتناس أن العدو داخلنا في كثير من الأحيان وليس العدو الخارجي فقط ، وأننا نحتاج إلى مخلص داخلي يحيه كل منما بداخله نرتقي .

هل كان ماهر هو دونكيشوت محاربا لطواحين الهواء ، وكان عليه أن يرصف أرض الجنوب فبل حرب الشمال ؟ وهل كان الروائي خالق البطل والمتعاطف معه واضعا نصب عينيه العجوز والبحر للرحلة المستحيلة ؟! وهل كان سيزيفوس ، يحرك لا وعيه سرده الشائق هذا وهل كانت نبوءات العراف الذي صعد إلى قصر أبريم بملابسه الفضفاضة في موعده السنوي محذرا إياهم حذار ياأبناء كوش ، يانخيل الأرض الطيبة ، وياصغار النفوس الشامخة , سوف تغشاكم الأرض الطيبة ، وياصغار النفوس الشامخة , سوف تغشاكم رياح الشمال الملعونة بمواسم من الحزن السرمدي مخلوطة بمرارة الصبر والحنظل ..

هل كانت نبوءات حقيقية ؟ وهل يطرح السرد الذي بين أيدينا قضايا تقلقنا وتمثل هما عاما مشتركا , تطرح رواية " او مشاه " أو صرخة في وجه الشمس هما وطنيا عروبيا ، تبدي طرحه من خلال " حدوتة " أسطورية تتلخص في تهديد كائن ما لجزيرة نوبية آمنة ، يعيش أهلها عيشة هانئة ، لم يكن يؤرقها سوى نبوءات العرافين ، لكن حتى هذه النبوءات ما كانت لتجعلهم يشعرون بالفزع بدت قدرة الكاتب على تصوير مدى الفزع والرعب الذي انتاب أهل الجزيرة ، حيث اللغة المكثفة ، والجمل القصيرة الخاطفة ، والتسارع الزمني ، وصنعه لأسطورة داخل سرد متخيل بأساس ، إضافة من يقسم بأنه رأى الوحش الخرافي وأن ظهوره يشق النهر نصفين حتى قاعه ، كعاصفة هوجاء ، لا تبقى ولا تذر وانتشر الخبر في كل مكان , في " توسركي نتوه " " ابراسية نتوه " ، عمدة نتو ، حتى وصل إلى إبريم الخير ، حيث

يتســـاءل الجميع "منجه هاو روا دو ؟" أي ماذا تفعل ياكبير ؟ وهم يتوجهون إلى " إد دو" أي صاحب المقام الرفيع الساكن ، بالقصر العالي ؟ فيجيب الكبير : - سكردو ! أي نتمسك بالجزيرة ويضع ثقته في ابنه ماهر ، ماهر " شلشلادوه جاشاتود " أي صخم وعملاق ومعتد بنفسه .

وزينة وفخر عائلة حمدون ، ليذهب ماهر مع كلوتود وشـــلالي وجورتي وهب وغيرهم والتقوا عند " المرسى الكبير " بعد صلاه الفجر ، كما حدد الكبير الذي عاد بالذاكرة سنة 1912 حيث جاء النهر على أرضهم فاضطروا لإصلاح بعض الأراضي البور وزرعوها لهم ، حتى عادت البسمة إلى البلد الخيرة ، يبدو العنصر الروحي الإيماني أحد دعائم النصر في المعركة فالكبير إددوة بيفرك مسبحته الكهرمان ، داعيا الله وونوراجة كنا أن يارب ليس لنا غيرك .

خرج ماهر على رأس جنوده التسعة وقسم " جيشه " وكمن في حالة ترقب , لكن خياله هام في محبوبته " أونتي " الجميلة ، وكذلك في بيت الســـاحرة " هوســـة " التي تخاوي الجن وتكتب الأحجية والتعاويذ وتريد تزويجه من ابنها " أرومة " والتي تعني السوداء وإن كانت في الحقيقة جميلة لا تقل عن جمال أونتي ، لكن أونتي هي الحب الوحيد ! كان الترقب مثيرا فتكنيك الكاتب جعل السـكون من حركة وفكر وشـرود وخيال ، وعودة إلى الوراء flash backوسـباحة في المستقبل ، فرح ، وحزن وإثارة ، يسقط التاريخ على الحاضـر ، استدعى شـخصـية ناصـر – التاريخية ، مع شخصية ماهر المهموم بالوطن – الحاضر ، يبدا الوحش في المناوشات لا يرى منه شلالي سوى فما ضخما كالكلابات ، ولونا أبيضا باهتا , هل هو تمساح ,ما طبعه هذا الكائن بالضبط , ركز الجميع على شجرة سنط فى حضن النهر كأنها تحنو عليه , لا شيئ يحدث , لا شئ سوى الحذر , وخيالات , لا أحداث جديدة .

فجأه أدرك ماهر أن شـــجرة الســـنط هى مفتاح الســـر , صـــرخ مع جابر وجورتى وذهب إلى الشـــجرة فأهل الجنوب طيبون بطبعهم , مســـالمون , وفجأة انقض أحد الوحوش غير المنظورة لهم مضـجعهم , استطاع الاستيلاء على الكثير من مواشيهم واغنامهم , ثم امتد الخطر للعنصـر البشـرى , لم يكن هناك سـوى ماهر ابن زعيم القبيلة وزينتها , كان على كاهله عبء "المقاومة " , استطاع بعشرة من خيرة أهل البلد رافضـا أى معونات خارجية , استطاع التربص بالوحش حتى قتله , وعاد سالما إلى عروسه المنتظرة , ومن المعروف أن الأفراح تمتد ليال طويلة حتى ليلة الدخلة .

واشـتاق ماهر –البطل لعروســه , فخرج لملاقاتها , لكن البطل قد لدغه عقرب صــغير –دون مقارنة تذكر مع الوحش الخرافى الذى اســـتطاع البطل قهره و القضـــاء عليه , ليموت قبل أن يكتمل اللقاء بحبيبته ! لم يجد الكاتب شيئاً على أرض الواقع يمكنه من مشـاطرتنا أفكاره بشـكل فنى , سوى اللجوء إلى الأسطورة , وهذه المرة ,أسطورة يصنعها هو ـ خيال من خيال
وحش أسـطورى يؤرق أهل الجزيرة , يقضـى على ممتلكات القرية , ثم يقضـم رؤوس رجالها ويتركهم أجسادا بلا رؤوس "لاحظ الدلالة " , ولقد تحققت نبوءة العراف الذى صـعد إلى قصـر أبريم بملابسـه الفضـفاضـة البيضـاء فى موعده السـنوى يحذرهم "حذار يا أبناء كوش , يا نخيل الأرض الطيبة , ويا صـفاء النفوس الشـامخة سـوف تغشـاكم رياح الشـمال الملعونة بمواسم من الحزن السـرمدى , مخلوطة بمرارة الصـبر والحنظل , وسـوف تطاردكم جيلا بعد جيل , حتى تقتلعكم من جذوركم , ولم يكتف العراف بنبوءة عامة , ولكنه يسـرد التفاصـيل "سـتسـوق هذه الرياح الى نهركم وحشاً لا مثيل له يأكل الحيوانات والأبناء , وتلك مقدمة لدفعكم إلى الصحراء الغربية المرة تلو المرة .

يفســـر الحكيم "أوش الله " قول العراف بأن الرياح , رياح الشـــمال تريد الأرض كل الأرض ,اقتلاعكم من جذوركم , ومن علامتها تحول النهر الأزرق إلى اللون الأبيض الباهت فيدخل الوحش والرعب ,لكن فارسكم النبيل حامل سيف أبيكم كوش هو الذى سيقهر الوحش ويطارده جنوبا حتى يقضى عليه .
كانت نبوءة العراف مخفية للجميع , الذين جهزوا "الجســـر" المركب الشـــراعى للهرب , لقد تحققت النبوءة واختفى ابن داريا , وابن ســكينة همد ثم ابن آشـــا أشـــرى , ابن زبيدة .. وزادت الحيرة وكثر التســـاؤل .. أمن دجر تطلب ســـروجى آرتى ... أى أن ناس النهر يريدون الرحيل إلى جزيرة سروجى ".

أطلق جاسـر عدة طلقات . لكن ماهر منعه حتى لا تضـيع الرصـاصـات هباء ! ورغم إصـابة ماهر بما أصاب عبد الناصر من إرهاق وجهد " استمر يواصل تحديه وإصراره . وكان الريس عوض الله الذى يعتبر همزة الوصـل بين الشـباب واهلهم يأت بالمؤن وأخبار الأهل وعلق على مرض ماهر قائلاً :ـ الجبل مريض ؟معقول ؟ لقد كان مرض ماهر فرصة
حيث حلم بمقتل " جورتي " وكأنه عراف راء ! ويسيطر المناخ الأسطوري على مناخ الرواية ، فعينا ماهر تلمعان بإصـرار غريب إلى النار المتأججة ، ورفع السـيف عالياً ، وخشـي الجميع من هذا الاندفاع الذي كاد يجعله يقفز في النار ، توقف وحرك السيف في اتجاهات شتى ، وهو يقرأ بعض التعاويذ والآيات ، لا يدركون معناها ، وفجأة نفذ الضـــوء المبهر في اتجاه صـــفحة النهر, فتحول شفافاً حتى أن الأسماك ظهرت في قاعه ، وأسرعت هاربة ، غير مكانه من النار ووجهه في اتجاه النهر.

حتى نفذ الضـوء إلى أعماقه ، حينئذ تحركت كتلة بيضـاء باهتة ضـخمة ، شـقت النهر نصـفين وأســرعت هاربة من الضـــوء المبهر عبر الأمواج العاتية ، حتى اختفى عن الأنظار وهو يهز السيف بإصـرار وتحد ، متابعا الوحش النهري الضـخم صـارخا (اندوكر ... أي أندوا كوماري ... أي تعال هنا ... أ،ا هنا ياملعون) .

يقرر ماهر أنه قد عرف بوجود الوحش ، يحدث الشـــمس قائلا :- نورا نجا فرجر ... نورا نجا فرجر (أريد نورك) ، ثم لف حول نفسـه سـبع دورات ، والشمس في مواجهته بضـوئها الذي صار لا يتحمل صارخا :- أندوا .. أي أندوا .. أنا هنا أنا هنا ، استولى الوحش على المجموعة ، واحدا تلو الآخر ، يتركهم أجسـادا بلا رؤوس .. لكن ماهر يصـر على القضـاء عليه ، ويصـر على عدم الإستعانة بأي أحد حتى لو كان من عشيرته أو أهله ، معتمدا على نفسه ، فلابد من " تأميم البحيرة " - " تأميم القناة " -، واسـتخلاصـها من يد هذا الوحش الرهيب ! ، فهو يغضـب ويكفهر وجهه أمام سؤال عوض الله .. أأبعث لكم مددا ؟ مجيبا إياه :- " دي إهانة ومعناها كبير " ، ولي حق كبير عليك ياعوض الله .
ورفض السـجر التي جاءت محملة بعشـرين شـابا وأصـر على عودتهم ثانية ! ، بدأ ماهر يبتعد عن الحماس والانفعال – بدأ مرحلة التفكير ، والمراوغة ، يســـتمع إلى آراء جســـور :- فاكر ياماهر كنا في المدرســة بنعمل عرايس .." مســاخيط " فيعاجله ماهر قائلا : - من الصــلصــال ياجسـور ... هنا تبلورت الفكرة ، خداع الوحش -حصـان طروادة- لابد من أخذ الثأر " دا تارنا ... لما حد غيرنا ياخده ... تفتكر حالنا يبقى إيه ؟ " الوحش مجهول لم يره أحد كل ما يعرفونه عنه أنه " مثل قشـرة صـدفية باهتة البياض " ، وذيل طويل وفم كبير ، كالكلابات ، هو " ألم " أي كالتمساح ، لكنه أضخم ، وبدأت الخطة ، صنع التمثال (نسخة بشرية كاملة) ، دار الوحش سـبع دورات بحرص وهدوء ، وكأنه سـجر تشـق مقدمتها صـفحة النهر في سـلاسـة وموجات

خفيفة ثم ابتعد فجأة ,اندفع مثل سهم يشق أجواز الفضاء حتى انشق النهر نصفين وارتفعت الأمواج ..

لم يتمكن أحد من الإمساك به , قضم الوحش رأس التمثال وتركه جسدا بلا رأس ! وصلت البارودة حتى عظامهم هل كان ذلك رعبا ؟ أم حيرة أم إحساس بالعجز , أم أنه خليط من كل هذا . فجأة صرخ ماهر وعيناه في وجه الشمس الغاربة متوعدا أوه مشاة أو مشاة ، هل كانت صرخة من تأثير مرارة الفراق التي يتجرعها أم أنها حسرة الهزيمة ؟ مثل الوحش شوكة في حلق ماهر والمجموعة ، أطلق صرخة حادة أقرب إلى الزغرودة واختفي بنفس الهدوء الذي ظهر به " كان شلال " أكثر أفراد المجموعة شجاعة ، حتى أنه كان يصيد السمك من النهر وكانوا يحاولون إثناءه عن ذلك دون جدوى حتى لقبوه " ملك الصيد " لكنه سرعان ما تحول إلى جسد بلا رأس ! ، تلاه رأس جاسر ، تحركت القرية كلها معها سيوف وخناجر وعصا يريدون وقف الصراع الدامي الذي قضى على خيرة شباب القرية ، وصلوا في المعركة الأخيرة ، بين ماهر والوحش ، يتعالى صوتهم : - اضرب اضرب اقبض عليه ، ديكر ، ديكر ماجتم ، اقتله لا تتركه ، نزل ماهر النهر واختفى في ماءه ، اختلطت دماء ماهر بدماء الوحش وحبس الجميع أنفاسه إلا أن ماهر انتصب واقفا ، كما رد جني ساحبا بيده اليسرى الوحش القتيل ، احتفل الجميع بالبطل – الأوحد – ماهر ، وأقاموا شاهد مكتوب عليه اسم كل شهيد أرادت القرية أن يكتمل سرورها بتزويج البطل من محبوبته .

أقيمت الأفراح التي تمتد عشرات الليالي ، خرج العروسان إلى لقاء ,بعيدا عن أعين الرقباء في إحدى ليالي العرس الطويلة ، لكنه يصرخ صرخة مدوية ، لقد لدغه عقرب جنوبي – هذه المرة – ليسقط البطل الأسطوري الذي استطاع القضاء على الوحش الضخم – الشمالي استطاع عدو – هذه المرة من الجنوب – عدو داخلي ، انهاء البطولة ووضع حد لها ، كأن القرية قد كتب عليها الحزن المقيم .

استطاع الروائي النوبي " محمد وهبة " خلق أسطورته الخاصة بعد أن ضاق بالواقع وضاقت قماشته السردية على استيعاب ما أراد أن يزجيه إلينا فكرا وقصا ، وبعد أن لم تسعفه كل أساطير العالم ، فصنع أسطورته الخاصة ، وحش خرافي غير مرئي ، آت من الشمال وما يشي به ذلك وينم عن هذا الصراع الخفي بين أهل النوبة وأهل الشمال ، وإن كان هذه المرة البطل جنوبي ، وبالقضاء على خطر الشمال ، لم يشمل النوبي من الخطر الداخلي الكامن بين ظهرانيهم ، هذه المرة وأن الأخطار متعددة لا جغرافيا ولا تاريخ لها ، وكأن مقولة أدونيس " ولأني أمشي يدركني نعشي " ,تطارد البطل الذي إن لم يمت بالسيف مات بغيره ، كما قال المتنبي أن المغزى الحقيقي هو فكرة العدو الداخلي ، العدو داخلكم ، لستم أنقياء تماما ، ليس العدو هو الآخر دائما ، بل قد يكون عدوكم هو أنتم أو على الأقل منكم ! .

القرية واقع قائم ، والبطل حقيقي, لكن الأسطورة لم يخترعها المصريون أو اليونانيون ولم تكن من أساطير بابل أو آشور لكن محمد وهبة أسطر واقعه الروائي ، الممسوس بجينات الجنوب والشمال معا ، الروائي " الجوربتي " ، الذي ينتمي لهذا البلد جنوبه والشمال دون الانزواء في كوخ أحدهما ضد الآخر ولا ينفي ذلك تحيزه – المشروع – لمجموعة من الجينات كما نتحيز للجينات السكندرية دون أن يكون ذلك ضد الآخرين ، كان الحوار مثيرا، شعريا ، لغة راقية مكثفة ، كادت تخلو من الأخطاء المطبعية والنحوية إلا قليلا .

كان الخيال خادما للفكرة ، متوجها لتحقيقها ، لم تظهر يد الروائي في توجيه الشخصيات ، ولم يخلقها ، لكنها خلقت ذاتها وأحداثها سيطرت على مستقبلها وصارت كما اشتهى السرد ، وفي كثير من الأحيان السارد ، وتحققت النبوءات كثيرة ، لكنها تظل متشائمة ، تغلق باب الأمل , لا فائدة وربما كانت منحدرة من تفرد بطل واحد بالقيام بالمهمة , لابد للوطن من إفراز أبطال كثيرين ، لقد مضـــى عهد البطل الكاريزمي المهم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لذا لم تبد سيكولوجية Psychology الشخصيات أو خلفياتهم الاجتماعية من العمق لم يكن هناك من ذلك سوى الدوافع motivation والأهداف aims بينهما الفعل action الذي كان ينتهي كالعادة باستشهادهم ! ، كفعل مقاوم أو رد فعل reaction إن جاز التعبير .

ســار الزمن بشـكل متســارع ، توالت الأحداث دون شـعور ببطئها أو الشـعور بالملل ، تحقق عنصـــر الإثارة والترقب والرغبة في بناء الحدث أو المشـــاركة فيه وإن كان يمكنك وضـــع علامات اســـتفهام أمام النهاية ، وأن تطرح العديد من التســـاؤلات لتبدأ في قراءة الرواية أو المسرحية أو القصيدة من جديد !.

****

قصاقيص أحلام

هاهو الديوان الأول لصاحبه ، وعند تصفح قصائده ، يتبين لك شئ غريب ، هو أن هذه القصائد ليست الأولى على الإطلاق ، فهذه القصائد قد سبقتها قصائد أولية تمثل على سبيل المثال بروفة وقد يرى الشاعر أو قد يقر بذلك ، وقد ينفيه ، فعلى سبيل المثال هو لم يكتب بروفات ، من قبل – لأنني بخيل_ وقد أوافقه على ذلك ، لكن كتبها في ذهنه ووجدانه ، عاشها بتجربته وحسه الفني ولم يسطرها على الورق ,إلا بعد أن تمت التجربة ، فتمثلت صورا وألفاظا وحياة ...

ولأن التجربة الشعرية تكتسب صدقها من داخلها ، فإن مدى هذه المصداقية هو الذي يمنحها الشعرية مهما اختلفنا على نوع التجربة ، فلست مطالبا بتصديق أمل دنقل وهو يقول ، لا تصالح ولو منحوك الذهب , حتى لو كنت تختلف معه أو لا توافق تماما يمنحها الشاعرية حتى لو كانت مباشرة ، حتى لو كانت واضحة ، دائما تبحث عن شيء ما ، ولا تجده ، تحسه وتشعر به ، ولكن لا تراه , هذا هوالشعر ! .

الشاعر أحمد زغلول جيل قد تطلق عليه الجيل الثمانيني ، أو التسعيني حسب ما يشتهي البعض أن يصنف الشعراء ، وكان هاجس الزمن يداعب هؤلاء بإستمرار ، إلا إنني لست مقتنعا تماما بهذه التصنيفات الكرونيكية التي لا تفيد إلا في سرد الوقائع التاريخية ، أما الشعر فبقاؤه كمن داخله ,بداخله فقط .

هذا الديوان "قصاقيص أحلام ", هو ديوان يعبر عن المرحلة تماما وعن الشاعر وجيله والجيل التالي له ، إذا اعتبرنا – في أيامنا هذه _ أن الجيل أصبح عشر سنوات ، وإن كنت أرى أن الجيل أصبح الآن يوما واحدا لا أكثر!
عبر هذا الديوان الشعري عن فقدان الأمل ، وانهيار الحلم ، وتداعي الواقع ، الشاعر الذي يحيا "يوم بيوم "في واقع سيء ، أصبح فيه الحلم مجزد قصاقيص .فلقد جاء على الإنسان حين من الدهر كان الحلم هو ملاذه الآمن ، حتى كنت –كدارس لعلم النفس أتهم الإنسان بأنه مريض بأحلام اليقظة ، فالحلم متاح بكل أشكاله ،فلا داعي لأحلام اليقظة ,لكن إنسان هذا الجيل أصبح محروما من جميع أنواع الأحلام فضلا عن الواقع , ولم يعد مسموحا بأي منها على الإطلاق .

وتأتي هذه المصداقية من شاعرية الشاعرالمتجاوزة وتأتي من واقعيته التي يلتقي فيها والمتلقي على أرضية مشتركة فيشتعل التلقي لأنه صادف مصداقيتين ،مصداقية الشاعر، وروح التلقي .

ولنطوف سريعا ببعض قصائد هذا الديوان فتكون القصيدة الأولى أصبح بخيل ، ليستوقفك العنوان ويدور بذهنك بخل المال والعطاء , فإذا بك تجد الشاعر يتحدث عن نفسه عن ذاته ، وكيف تحولت حالته من السخاء والكرم على المستوى الزمني إلى البخل والشح على نفس المستوى , فعندما كنا صغارا ، كنا نستمع إلى برنامج إذاعي بعنوان " تحت العشرين" وكان عمري وقتها أربعة عشر عاما ، فكنت أقول متى أصبح في الثامنة عشرة عاما لأشعر أن هذا البرنامج يخاطبني شخصيا وعندما كانوا يسألوننا عن عمرنا كنا نضيف بضعة أشهر لنكمل العام التالي ، وقد نرى خبث السائل ، فنضيف لأعمارنا عاما أو يزيد لنثبت له نديتنا ، وأننا كبار , لقد تحول الحال الآن بعد أن مس الشيب رؤوسنا وعاد الشاعر ليستمع إلى إجابة مغايرة .

فمن بعد ما يعد في صوابعه .. يعضها أصبح بخيل .. دائما يحس أنه اتسرق !!
هذه الصورة التي خلقها التناقض بين السطور السابقة .. كان يرمي فوق سنه سنين والسطور اللاحقة من بعد ما يعد في صوابعه .. يعضها .

هذا التناقض يعمق المأساة ، ويوحي بأثر الزمن والأيام وكيف أن أحلامنا قد سرقت دون أن نشعر , هذا الجناس الناقص بين يعد و يعض , أرأيت هذه الصورة البلاغية الصعبة , بالعد والعض الصورة الضاربة في جذور البلاغة العربية يعض بنان الندم .. وهي صورة قرآنية أيضا تشي بثقافة تراثية ,قلما تتوافر لدى كثيرين الآن ، وهذا يعني ببساطة أن هذا الشاعر لديه خلفية تراثية راسخة .

يقطف الشاعر من شفايف الورد تنهيدة بلون الهمس فللورد شفايف ، يقطف منها تنهيدة ، فهذه صورة بسيطة ولكن, يسعى لتركيبها لتكون القطعة ، التنهيدة لها لون ثم يضفي على اللون ما يسمى بالتراسل فلا يكون اللون أحمرا أو اخضرا بل هو لون الهمس ! .

كذلك بيت شعري اللي متلفع بشال منهوك ، ثم اللعب بالألفاظ وهي لعبة ليست جديدة ، ولها خطورتها ، إن لم يحسن الشاعر استخدامها ، أو إن لم تضف جديدا ، فقد تكون غير مستحسنة شوق وشوك , للحقيقة إن الشاعر لم يقع في هذه المسألة كثيرا
أما قصيدة " قناعة " فهي من القمم الشعرية في هذا الديوان ..

نفسك هفاك
على طعم العنباية الطارحة
في جنينة جارك
نفسك
تستطعم حباتها ف بقك
حاول تسقي العنابايةَ الطارحة ف دارك
ليشد عطشها في يوم
حنية جارك

فهذه القصيدة قد يصح أن تكون دالا علي هذه المرحلة ، فكل منا لديه نفس الشوق لعنب الجيران لكل ما في يد الآخرين ، وكل منا منبهر بعطور الآخرين ، وكل منا ترك (عنبايته عطشانة) ولسوف ينجذب لكثير من العنبات, إلى حنية الجار والخوف من أن يرويها هذا الجار ,قصيدة تمثل مفتاحا لعالم هذا الشاعر ودلالة على شاعريته ، وهي قصيدة لا يكتبها إلا هو وليست بداخلها تذكر أو أصوات أخرى ، غالبا ، أما قصيدة على شطك فهي قصيدة جيدة لكنها وقع الشاعر في استخدام بعض الألفاظ المحلية السكندرية التي أراها من وجهة نظري تسيء إلى الإسكندرية وليست كما يراها البعض سمة مميزة ,فأنا أرى أن كلمات مثل " أزوق ملاغية" ليست في صالح القصيدة ، وهي كلمات قد استهلكت في نفس الأغراض وبنفس الطريقة , وإن كان الشاعر يتذكرها ذاته فيعود في نفس القصيدة إلى أحمد زغلول مرة ثانية فيقول :

ما أنا أصلي زمان سايب
بواقي الحلم ع المية
وأنا سابق خطاويا على رملك
وبانكش كل يوم عني

وقمة ارتفاع المستوى الشعري إلى " أتمنى مطب لم يهبط بنا إلى بيمكن علشان القاعدة معايا .
لازال أحمد زغلول يمارس لعبة الأبيض والأسود لعبة التناقض Contrastفبهذه تتمايز الاشياء وهذه اللعبة لعبة خطرة ومحدودة لا يمارسها إلا شاعر قدير ، فهي لعبة من ألعاب كبار الشعراء

الذين أظن أنهم أكتسبوا قدرتهم الشعرية الهائلة ليس من الخيال المحلق وليس من الصورة الشعرية ، وليس من التكثيف ، وإنما من خلق التناقض
يقول المتنبي بمناسبة : أصبح بخيل :

خَلقت ألوفا ,لو رددت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب

وإن كنت لا أستسيغ كلمة الكاينة " وتكويني" فرغم الموسيقى العالية الصاخبة من تجاور الكلمتين كاينة / تكويني ، فإن الكاينة هذه تمثل عبئا على شاعرية القصيدة .
أما قصيدة مثل جايز في هذه القصيدة المراهقة جدا , والتي نحسها لأننا جميعا مررنا بها أو مرت بنا ، فهي قصيدة قد يخشى كثيرون كتابتها ,إلا أنها قصيدة للجميع ، فدقة التصوير عند الشاعر نجدها في مفتتح القصيدة ..

ورقة بفرة يادوب
كانت الفاصل بيني وبين البنت القاعدة ف باص

حوار ساخن جدا بين الجينز وبين الجيبة الفاضحة , أصهد تصهد , أصهد .

نفسي أعيش
أفتح بإيدي كل باب
تدخل ياصاحبي للحياه
من غير عذاب

قصيدة أجمل ولد

كنت بتضحك وحدك
م تضحكني معاك

حالات مختلفة ، خزي , فاكرني ياعمو , أنا كنت في نفس المدرسة مع ابنك ، أنسان ، حزن طفولة ، دفئ بدايتها فقط طبيخ الجيش .

إن هذا الديوان يحتاج إلى دراسة متأنية فهوخلاصة ربع قرن على الأقل من الخبرة الحياتية والمعاناة الشعرية الحقيقية ، وكان احتفائي دائما بالكيف وليس الكم فها هو شاعر يصدر ديوانه الأول رغم تأخر صدوره كثيرا مشحونا بهذه الهبات الشعرية العالية الصادقة في زمن عز فيه الشعر الحقيقي ، يحتاج أحمد زغلول لوقفة متأنية مع النفس قبل الكتابة الثانية ، فلديه فرصة عظيمة لديوان ثان فارق ومؤثر في الحياة الشعرية والأدبية ، وللمرء أن يفخر إذا كان لديوانه الأول هذا الضجيج .

****

* تصطاد الشياطين

قبل الثامنة والنصف بقليل ,أخرج أغاشى الندى الذى يبلل الحشائش والسيارات القليلة المسرع' والحواجزالحديدية , وأكياس الرمل ,فليس لدى خيارات كثيرة سوى رغبه متأججة وحكايات تتلاشى تدريجيا , ويقول :- سألت عن كروت اتصال دون جدوى , اسأل عن ترددات جديدة لـــ " الجزيرة "
وأحوال التمييز بين اللصوص المسجلين وشباب اللجان المسلحين بسكاكين المطبخ ، وسوف أناقش ضباط الجيش أمام الإذاعة عن كيفيه دخول الجمال و الأحصنه الى الميدان ؟
وبعد أن يستعرض أحداث الميدان ، يعود وحيداً يواجه ما لم يواجهه – نواجهه من قبل ، بينما أعود إلى البيت مساءً أبرز هويتي مستسلماً لهواة التفتيش الذاتي ، أغلق الباب علينا بالسلسلة الحديدية وأضع عصى خشبية في متناول يدي ! .
يرسم سمير درويش لوحة شعرية أدركنا جميعاً فيها دقائق ما عايناه وعانيناه اللجان الشعبية والتفتيشية ، وبعض الوجوه الشاحبة التي كانت تستوقفنا ، وبعضها كاد يمارس ما مارسه النظام الأمني القمعي البائد ، ولقد حمدت الله– أنني تناولت عصاتي ووقفت أمام باب بيتي في سكني الشعبي ، لقد عايروا من لم يقف أمام بيته واتهموه بالجبن ، والأنكى من ذلك ، أنهم هم ولولاهم ما كان حيا حتى الآن !.
سمير درويش -عدسة الكاميرا هذه –يجيد التقاط التفاصيل والتي تخص الروائي ربما أكثر من الشاعر ، وله قدرة على التذكر حيث يعود لمقاطعه الأولى ليكمل " خطة" عمله أو يتقاطع معها أو يناقضها ، فيعود إلى المقطع الأول ليتفرس في الندى الذي يبلل الحشائش والسيارات المسرعة وآثار الحواجز وأكياس الرمل هذه المرة لتموت الحكاية ! .
وها هو في " حنين " أو نوستالجيا ، تشتاق الذكريات لذكرياتها ! تشتاق المرأة للماضي ، وهذا التقابل بين الرجل البركة الآسنة والمرأة البراءة .
ولا يرى أهمية للذهاب إلى ميدان التحرير مادام ميدان الأشعار موجودا فهو الأب الشرعي لميدان التحرير ، خاصة إذا كان هذا هو شعر الرجال القدامى ، ولا يفوته رصد المشهد السياسي في بانوراما متكاملة ، الزوجة الساخطة على زوجها الساخط بدوره على الثوار في رغبة شديدة لإتاحة فرصة للمخلوع أن ينال مقبرة آمنة , ماذا يفعل والزوجة الطيبة المتسلطة تمضغ التبغ وتملأ قائمة المشتروات .
وهي تخاف من أن تصير سدة المشهد للإخوان المسلمين ، ربما كانت تخاف أن تجلد ألف جلدة لمضغها التبغ الحرام ! وإن كانت تبدو – في اللاوعي – إمرأة طفلة تبكي الثوار وتتمنى ألا تثكل أم لأنه لا يوجد ! Next – move
إنه متدين يقرأ سورة الضحى ، ويخاف على القبطي المسالم ، لكنه يحيا التناقض وجهي الإيمان الكفر ربما يرسم صورة خاشعة لوجهه حتى يختبئ ولا تلحظ زوجته ، وجهه الخفي ! إمرأة متدربة على إهمال ما لا تراه ، كأنه لم يكن أبدأ !
إذ تنزعهم من سريرها قبل أن يلملموا أطفالهم المنثورين على الملاءة ، وهي امرأة مُجَدْوِلة ,تجدول الرجال والشعراء بالمعنيين الرياضي والاقتصادي ، هي " مقسمة " في كل شهر خطة وضحايا .
ويجلس الشاعر على مقعد الاعتراف معلنا خطأه ، ولا يتورع عن القسم على ذلك ! .
وفي القسم الثاني مجرد جسد .
امرأة مرهقة لرجل طيع ولذيذ ، ماذا سيكون على مثلي ؟ يبدو أن قصيدتي انتهت هنا ، وحكايتي حكاياتي جميعا ، إلا أن الرغبة في البوح والوجود يجلعنا - سيطرد قصائده - لأن مثل هذا الانتهاء يبدو مبكرا كثيرا عن الطبيعي , المرأة العنكبوت , ترص الشعراء على الرقعة منهكين.

أوراق من دفتر عشق قروي

ما إن صدر ديوان " أوراق من دفتر عشق قروي " إلا وكنت قد بدأت في تصفحه سطرا سطرا بداية من العنوان مرورا بالقراءات والدراسات التي تصدرته بأقلام ذات تجربة واسعة, مثل الدكتور أحمد المصري والشاعر الناقد أحمد مبارك ، وهم قادرون بدربتهم التعامل مع مفردات هذا الديوان وجاءت كلماتُهم وافية على سبيل التقديم وتنوير القراءة بشكل منهجي منظم يفك شفرته ويفسح مجالا للقارئ أو المتلقي بشكل عام أن يسيح في عوالم وكائنات وفضاءات كمال على مهدي ، الذي لا يمكن التعامل بيسر مع مفرداته الشعرية ، التي تسكنها الكثير من الأحاجي والرؤى وتعزف على العديد من الأوتار كالموت والحرية والتمرد والفقد متخذا من الموروث الديني والشعري والأدبي والثقافي العربي القديم , ليسقط على الواقع شعريته وهمومه وآرائه وأفكاره فيلعب التناص بعناصره المتباينة أدوارا رئيسة في تكنيك الكتابة لديه .

ويأخذ الديوان إلى مناقشات لا تنتهي حول طبيعة الكتابة والرؤية والرؤيا وصلة الشاعر بالمجتمع ومناقشة قضايا الفن للفن و الفن للمجتمع ، أو ما يسمى بأدب الالتزام وإشكاليات الصياغة والتوصيل والتعبير والتعاطي على مفردات العصر ومدى مواءمة التناص مع الموروث الديني (القرآن) خاصة ، والجرح القروي القديم الذي يحياه الشاعر رغم إقامته في المدينة فترة طويلة ولكنه هذا العشق الذي يمارسه ومدى الالتحام الحقيقي بالواقع الذي يؤكده رجاء جارودي :- كونك "كاتب واقعي عظيم أقام التحاما بين الإبداع الشعري والحياة وليس كاتبا بائسا "، ولكن أعماله الأدبية تعبر عن موقعه من العالم ، وهي ليست صورة منقولة ومتواكلة ,"كما أنها ليست نبوءة تسرف في الخيال .صـ 249 – 250 رمضان الصباغ ، وفلسفة الفن عند سارتر ، وتأثير الماركسية عليها" .

أو تلك الرؤية المضادة التي نستغربها من كاتبة اشتراكية هولندية وهي هنريتا رولاند – هولست Henrieta Ronald- Hlgst في دراستها عن علم الجمال الإشتراكي والتي تقول " إنه من المعروف للجميع ومما لايحتاج إلى تذكير أن الفن ليس في حاجة إلى هدف خارجه ، ويرى معناه في ذاته " رمضان الصباغ السابق .
وإن كان كلام هنريتا مدهشا خاصة وأنها تصنف ككاتبة اشتراكية ، فالاشتراكية لا تعني سوي الالتزام ، وبقراءة أولية لقصائد الديوان يبدأ الشاعر ورقته الجامحة بقصيدة " آهة أخرى للضحك " والتي لا يخفي ما للعنوان من سخرية مرة ، وذلك التضاد بين الآهة والضحك ، وهو يعيدنا إلى قول المتنبي ، لكنه ضحك كالبكاء ! ولايخذل الشاعرقراءتي ,فبعد أقل من خمسة أسطر يقول :

لا وجه غيري للضحك
لا وجه غيري للبكاء
وعادتي في الرقص
تبدأ من حدود الجرح
تبدأ من مقاصل الانتماء

ويجرب الشاعر مدينة أخرى ومدينة ثالثة ، لكن مقاصل الانتماء هي هي .
تتكور المدينة ، نسخا عديدة وتزداد المقاصل ويكون المسيح مسيحا بكل المدن ، ومقاصلها المتعددة في انتظاره ، أما الموت فله نصيب كبير "الموتى صـــــ 43", وهي أكبر مفردة للموت والتمرد والدمار ، ويفاجئ الشاعر واقع مر آخر – عكس كل القرويين الذين هبطوا المدينة ، فإن الشاعر بعد أن عاش في المدينة وعايشها ، تصطدمه قريته التي يكتشف أنها أصغر ساتحة في ملكوت الله بعد أن كان يحسب أن حدودها آخر ما خلق الله ، يكتشف الشاعر أن عيشة الفلاح بائسة وأن قلبه

غير مطمئن وغير مرتاح ، وبدلا أن يكمل عبد الوهاب أغنيته " ياهي ياهي ياه ، يكملها الشاعر بآه آه عميقة من شغاف قلبه .

إشكالية الشاعر ومدينته وقريته ، صدمة المدينة والواقع المجازي ، وحب محمود حسن اسماعيل والسياب وغيرهم للقرى التي جاءوا منها ، ولفظتهم المدينة ، السياب في جيكور ولعن حجازي القاهرة ، لكن كمال على مهدي لعن القريةوالمدينة معا ! أين نعيش ؟ الحزن قرين الموت وصنوه عند كمال على مهدي ، فالغروب هو الموت والليل إذا سجى ,فهو موت ، يظن الشاعر أنه سيلمس السعد ,لكن يبتعد ويرتد بارد هذا الليل وكئيب يعاتبه ويعاتب القمر الخافت ، إن كنت سرقت عصافير الضوء ، فلماذا لم تسرق قبسا من دفء ؟
حتى الأرض منذ جريمة قابيل وهذي الأرض تخبئ حبات الخوف ، أتشمم ميراث الأجداد ليتساءل الشاعر, هل هذا السيف تراث أزلي ؟

هل سفك الدماء والحروب وقهر البشر هو الطريق المرهونة به الإنسانية ؟ يمتد الموت عبر صفحات الديوان بأشكال كثيرة ومتباينة ، فالموت غروب وصمت نهار وتباريح نقوش وأشلاء ومرارة اللغة الجسورة ، وصفع المحال تجسد اللغة الحزينة ، ، وقبرات مرتحلة ، وطفلٌ قتل وصمت يضاجعه الوهم بالمحتمل وغيرها كثير ,وكلها أشكال متعددة للعنات ! نجده في أدركت أني واحد الموتى ، أجرب حالة الموتى على إنصاتهم ، إنني لا أكره الموتى ، قد مر موتٌ فاستراح لجارنا ، قد فاتني موت جديد ، أما التناص وهو أحد تكنيكات الكتابة لدى الشاعر ، فيبدد بأكثر من شكل نجده ، في آه ياأقصى المدينة ، هيا اخرجوا للبحر حين ينام فاغترفوا قليلا واطلبوا ، كالكلب إن تحمل عليه ، وأنا استدرج السنبلة ، وقبضت من أثر الزناة ، قررت هذا العام أن أحتج ، أن أحتاط ، وكيف إذا عجلت إليك ربي ؟ ,قيل اعمل سابغات !.

من رؤيا العزيز ، اقتص فيه من النساء ، والتناص المضاد يتمثل في " بل إن راقصته " تبنت موقفي المرفوض – كنت أغالط يوسف ويبدو الأثر القرآني شديدا ومتغلغا في الروح – والتعبير الشعري في كُتَّاب القرية والاجتماع الأسري والقروي الذي عاشه ومازال يعيشه ولا يتعمد الشاعر اللجوء إليه مطلقا, بل هو ينساب ويتغلغل إلى قصائده دون تعمد أومقصودية تتضمن في المخزون الثقافي الذي يفيض فيضا منه ويكتبه دون جهد يذكر , وللأثر الأسري والقروي نصيب في كل ما يكتب الشاعر ,الذي يتذكر قريته باصونة, بسوهاج وحدة الشاعر وتخيل قريته الوسيعةالتي اختلفت نظرته لها بعد أن غادرها وعاد إليها ليجدها هذه المرأة الدميمة لتتغير الرؤى تماما لديه وربما أصبح لا يكن لها الحب الذي كان وللروح الساخر لدى الشاعر بصمة موازية منبثقة عبر الديوان نجدها في الكثير من المواضع ، يضحك ضحكة البكاء ، أدركت أني واحد الموتي ، فكيف إذا خرجت بدون رأس تضحكون ، من أين ندخل للمقاهي أيها الشرطي ، أوكلنا أيها الشرطي نحبلُ بالصفير ! من يتخلف منكم عن أكفانه ، فليتبعني ، سوف أجد المارة ، وأحرر مكتوبا يسمح للسلطات بحق الاستجواب.
ملائكة الموت المندسون علينا ، وبحق التدخين الفوضاوي ، وبحق الصيد إذا دخل النيل بدون استئذان . وكذلك ، الموتى أحباب الله ، ونحن كذلك في المقهى، مر الشقاء وحّذر الجيران فكيف إذا صحوت توظفون حقيقي وتعتدلون مسارها في المختبر أضحو ,فاختصم الدواليب التي ملئت بأفواج الجنود ، وأعد أعواما ,كنت هناك ضيفا على الهنود الحمر كيف ؟! وها هنا يبكي الهنود والمفارقة بين مشهد قريته قديما " كنت أحسب أن حدودك آخر ما خلق الله ، أن جمالك ، أجمل ما خلق الله ,حبيس غرفتك ياقريتي ، صرت الآن كأصغر سائحة في ملكوت الله!
وتستغرق المفارقة أيضا صفحات الديوان :

وقلت أعانق صبحا يتسلل خلف الأعتاب

وحين بلغت السدرة

كان الضوء المتدلي في ملكوت الأثواب

قد عرّج نحو الشجر المتسلق واللبلاب !

للقرية تاريخ مقرور ، محفور في ذاكرة الدوام ، وآخر شبر من صفحات الأرض البور , كان لها ربٌ , والآن كثيرا ، اختبر أيامي فيصفعني المحال ، أتجسد اللغة الحزينة ، استطيل مع الزوال .

تلعب الصورة دورها الهام في الشعرية مقترنة بالخيال ، ولدي الشاعر الصورة الممتدة المركبة المتشابكة والتي يحصدها من تكنيك التداعي الحر الذي يجيده الشاعر والذي كان جليا واضحا في الديوان السابق " يوم يكون الراعي " إلا أن شدة هذا التفكك قد تلاشت كثيرا ، لتصبح الأفكار والمعاني أقل تفككا من ذي قبل ، وإن كنت لا أدين بشكل مطلق هذه القفزات من فقرة إلى أخرى من فكرة ومجموعة أسطر إلى فكرة أو مجموعة أسطر أخرى ,فالتدفق الشعري يضغط الشاعر مما يجعله ينثر أفكاره ومشاعره على الورق سريعا في حالة من اللاوعي التي تجبره على أن يسترسل في تفككه ، وليس الشاعر هو الوحيد الذي ينمو نحو هذه الكتابة ، فهناك تعليقات مسبقةعلى كتابات الشاعر كما يشير ت إس إليوت ,خاصة في الأرض الخراب تنمو نحو هذا المسار ، فيقول قائل :-

The west land achieves psychological and semantic coherence since if enjoys:-

1- Unity of mood , feeling , attitude

2- Through symbols , allusions , images and poetic diction which all have connotation of death in life , sterility and importance so we have a symphony of ideas which provide a coherent whole of feeling

فمثل هذه الفجوات التي تحدث بين المقاطع ، هي فجوات نفسية ، تبدو للوهلة الأولى نقلات بين أكثر من فكرة أو حالة ، لكنها في الحقيقة بينها خيط يحتاج إلى التدقيق والخوض في الأعماق حتى يمكن الوصول إليه ، ويحتاج أيضا إلى التدقيق والخوض في الأعماق حتى يمكن الوصول إليه ويحتاج أيضا غلى تكنيك نفسي هو تكنيك close يمكن من خلاله سد الفجوات ، بل يمكن القول أن هذه الفجوات كفيلة بالإضافة إلى عناصر أخرى بإحداث شعرية مغايرة ، وربما تكون الأفكار المرتبة المتماسكة غير معنية بتأثير شعري عميق ! .

أما الموسيقى فهي شديدة الوضوح ، موجودة بكثافة ، سواء على المستوى الخارجي أو الداخلي تتميز بالتنوع سواء الموسيقى العروضية أو موسيقى القوافي أو الموسيقى الداخلية ، علاوة على السياق النفسي للقصائد الذي يمنحنا حسا ما, بالإضافة لما سبق وهذا أحد أسرار التأثير الإيجابي لديه .

وختاما لا يمكن الإحاطة بديوان في دراسة واحدة أوقراءة خاطفة بل, يحتاج للعديد من القراءات والمراجع ، فهو يمنحك الحرية للتخلي وحرية معيشة الواقع وقراءته وإعادة قراءته والإضافة والحذف والاقتراح ويترك في نفسك شيئا ما إ حتى لو كان مُراً .

حيث لم يتكئ الشاعر على ماضيه التراثي فقط ، إنما حاول تجديد لغته هو وأن يطعم القاموس القديم بقاموس أكثر حداثة ، لكنه كان صادقا مع نفسه ,فلم يلجأ للتنصل من قاموسه الشخصي التراثي ، في سبيل إدعاء تجديد ما ، ولكن على الشاعر – أي شاعر – يوما ما ، أن يجدد دم قاموسه اللغوي والشعري – ولو على سبيل التجريب – حتى تختمر اللغة الجديدة في نفسه ، وأن تصبح جزءا من ذاته ,وعيا أو لاوعي, دون أن تكون متعمدة أو مجلوبة ، وهو ما أعتقد أن الشاعر سيفكر به وسيكون في ديوانه القادم إن شاء الله .

ضجيج في حضن الشتاء

قراءة في مواجع علاء سليمان الشعرية

قال أمير الشعراء أحمد شوقي :
إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس حريا أن يقال له شعر
والتأثير الذي يحدثه " الشعري " قد يكون تأثيرا عقليا أو وجدانيا أو سلوكيا وربما العناصر الثلاثة مجتمعة أو عنصرين منها فإذا ما استطاع الشاعر إحداث واحدة مما سبق فلقد أشعر ولو بدرجة من الدرجات !
وبعيدا عن التعريف القديم الكلاسيكي للشعر ، الذي يعلن في صراحة شديدة أن الشعر كلام " موزون " مقفى له معنى في بعض المصادر ,فإن شاعرا كنزار قباني عرف الشعر على طريقته الخاصة قائلا :
ما هو الشعر إذا لم يُعلن العصيان
وما هو الشعر إذا لم يسقط الطغاة والطغيان
وما هو الشعر إذا لم يخلع التاج الذي يلبسه كسرى أنوشروان ؟!
ويقول الجاحظ – في عودة ماضوية – "الشعر شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا "
وتقول العرب : " شعر الرجل شعرا أي قال الشعر ، وشعر به شعورا أي أحس به " .

كما يعرف الدكتور إحسان عباس الشعر بقوله : " الشعر ظاهرة إنسانية لا يحد بدايتها تاريخ معين ، ولعلها وجدت منذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة ، وهو مرآة تعكس الحياة بكل ما فيها من مفارقات ومتناقضات وهوتعبير عن إحساس وخلجات النفس تجاه توتر خارجي استنبطه الشاعر ,فأثر في عاطفته واصطبغ بوجدانه " .

أما الشعر الغربي بأنواعه المتباينة ، فقد اعتمد على الأوزان ، كما اعتمد الشعر العربي تماما وإن كان عروضه مختلفا عن العروض العربي بالطبع ، فاعتماد الشعر الغربي على المقاطع من حيث تقسيمها إلى مقاطع طويلة وأخرى قصيرة واعتماده على النبر, يجعل المسألة مغايرة للشعر العربي عند التعامل معه موسيقيا , كذلك قد استغنى الشعر الغربي في مراحله المتقدمة عن فكرة الوزن تماما وتابعناه نحن العرب في ذلك ، مع اختلاف طبيعة اللغات ، فهناك حلم راود صاحبه : من منا لم يحلم بمعجزة نثر شعري ؟
أيا كانت تعريفات النقاد للشعر من حيث مبناه ومعناه ، فإن للشعر داخل نفوسنا وقعا خاصا ، نعرفه به ، حتى ولو لم تكتمل العناصر الأساسية للعمل ، فإن المتلقي يعترف – على الأقل – بشعريته خاصة وأن المتلقي غير المتخصص ,لا يميز أنواع القوافي ولا يعرف أنواع الأبحر المكتوب بها أو عليها ,هي أعمال جماهيرية تمس وجدانات الناس وكذلك أعمال صلاح جاهين وسيد حجاب وغيرهم ,رغم تباينهم والغريب أن أعمالا لامرئ القيس ، تترك فينا أثرا طيبا كالذي تتركه أزجال ابن قزمان ، كالذي تتركه قصائد أمل دنقل ، وربما سعدي يوسف وأدونيس ,رغم اختلاف الأساليب والطرق التي تبعتها هذه الكتابات ، حتى أن بعضها ينقض بعضا أحيانا ، لكن كيمياء ما ,استطاعت أن تفعل ذلك.

هذه الكيمياء هي مزيج محكم ، من الموهبة الفطرية والدراسة والثقافة والعوامل المجتمعية المحيطة والظروف الاقتصادية والسياسية والمناخ المحيط بالشاعر بشكل عام ، يمكن أن نضيف

إلى ذلك كله ، رغبة الشـــاعر في التميز وإيمانه بموهبته وقدراته ، وإرادته في الإنجاز ، وكم قرأنا في تاريخ الأدب ,أن فلانا الشاعر قد أخمد مائة شاعر كلهم مجيد !
وضـجيج في حضـن الشـتاء ، ديوان عامية ,للشـاعر علاء سـليمان وباسـتعراض ثلة من قصـائده ,يمكننا أن نتبين الخصائص التي تميزه عن كثيرين
في نصه المعنون" بخيول سودا" يستهل الشاعر قصيدته بالسطر الأول :

إنتِ اللي طفشتي الكناريا

وسمحتي للخيول السودا تخشني !

يتخذ الشـاعر من المقولة الشـائعة خير وسـلة للدفاع الهجوم ، حيث يفاجئ الشـاعر" الأنتِ "التي يخاطبها بلطمة قوية ، بتوجيه اتهام شـــديد بأنها هي التي تســـببت في قفل كل ما هو رمز للجمال والمعروف عن طيور الكناريا عدم قدرتها على العيش وحيدة ، فهي تفضـــل العيش مع غيرها خاصـة من فصـيلتها ,كما تحب أن تعيش في مجموعات من جنسـها ، إما ذكور أو إناث منعا للغيرة كذلك فإن الكناريا طائر شـديد الحسـاسـية له طريقة تعامل شـديدة الخصـوصـية عند محاولة لمسـه فعليك أن تضـع يدك بقوة على ظهرها ، حيث يكون الذيل في وضـع مسـتقيم مع الرأس من الداخل وأن تكون الرأس بين الإصبعين الأول والثاني , وألا تقبض بيدك عليه .

وكذلك عمر الكناريا لا يزيد عن سـنوات سـت ، فهو طائر رقيق ذو عمر قصـير ، فلا شـك أن هذه المتوحشة التي استطاعت تهجير الكناريا ارتكبت جرما لا يغتفر !
ألم تكتف بذلك ، وسمحت للخيول السوداء بالدخول " عملية إحلال وإبدال ".

تمثل الكناريا هنا رمزا للحق والخير والجمال ، لكل ما هو إنساني ورومانسي ، أما استبدال الخيول السـوداء بالكناريا ، ربما كان إغراء اللون – الأسـود – كرمز هو الباعث للشـاعر على اسـتخدام الخيول السوداء كنقيض للكناريا ، بأصـالته وعراقته ، لكن الشـاعر اكتفى بالاسـتعانة بالرمز لونا – إن جاز التعبير – للتعبير عن جهدها وتعبها ، ولا عجب فإن أنســـى الحاج يقول : فوق البيت تكر الخيول السوداء وفي البلاد لا يرد أحد ، لا يكتفي الشـاعر باسـتخدام رمزين متضـادين – من وجهة نظره – في التعبير عن الفكرة / الحالة إلا أن يصعد مونولوجه قائلا :
طمعتي فيا الحالات ، وفي إيجابية قلما نجدها لدى كثير من الشعراء الذين هم محبطون دائما ، نجده قويا مبادرا .

بعترتك على الورق

وخرجت !

مستني دي الضحكة

وريحة الفساتين

والحكاوي إياها

إلا أن الطرح لم يكن سهلا ، حيث قامت بالعربدة وسكبت الحبر ع الوجع بعد أن غافلت الأجندة

سهيتي الأجندة

ودلقتي الحبر

ع الوجع

إن فعل المغافلة هنا يكتسـب جدته كونه يقع على " الأجندة / الشـيء " وليس على إنسـان "العاقل" كما نجد الصورة :- **دلقتي الحبر ع الوجع !.**
لدى الشـاعر جرأة التصـوير و"شـراسـة اسـتخدام الرمز" ,وكسـر الرؤية التقليدية للأشـياء في جرأة أخشى دائما من تحولها إلى تهور !.

يستعين الشاعر بالذات مؤكدا مواجعه ، وقوة الخصم وشدتها التي هزمت نازك ومي ,لكن باب الأمل لم يوصد بعد ، استطاعت فدوى الانفلات في تضمين شديد الصلة بالسياق الذي ينفلت الشاعر منه عائدا إليه بخفة الكناريا أحيانا واندفاع الخيول حينا آخر .

ولو تخلص الشاعر من بعض السطور التي تحاول أن تبدو نوعا من التفلسف أو التثاقف ، لكانت القصيدة منسابة سلسلة ولكان التفاعل مباشرا . فنجد معترضات مثل : وما كنت ضد الضد لكنه بيعاني الفصام ، خاصة أنها جاءت تالية للتضمين المنقول عن"فدوى طوقان " حيث إثقال النص بالمفردات الفصحى ، مما لا يجعله يحتمل هذه الأعباء ,التي لن تفيد من وجهة نظري المتواضعة في إصباغ العظمة على النص ، في حين أن سطرين مثل : لكنه بيعاني الفصام ، وهفوة العظمة وخبرة الأطفال أكثر سلاسة واتصالا بالمتلقي .
يعزف الشاعر سيمفونية غير كلاسيكية البداية ، فلديه هنا القدرة على لفت الانتباه ، حيث يجعلك تتساءل ، بعد أن تقرأ أو تسمع وماذا بعد , أو ماذا هناك ؟ ,حيث يقول : -على جسر النظرة اللي ما بنا ,فتجدك في حالة من الانتظار لما سيأتي ، لتجده يخبرك بأن حاجات ولحظات وساعات وقصايد وبوح وحنين .
يغني في الحقيقة الشاعر أغنية رومانسية من زمن جميل ، فهذه الرشاقة في الكتابة ، تشعرك بشاعر رومانسي ، متمكن من أدواته ، والناي بين يديه ، وأراه نايا أكثر منه جيتارا ، فهذه أغنية شديدة الشرقية والمصرية تحتاج إلى ناي وربما إلى عود ، ولم يضف إليها شيئا ,سوى النهاية الشهرزادية الساخرة :

ف أدركني مدير الندوة بالصياح
فقمت إلى الكلام المباح

التي أراها تفسد هذا المناخ البوحي الرومانسي ومن الأفضل التخلص منها ، لتبقى أنشودة عاطفية تصلح للغناء !.وإن كانت صرخة في وجه استبداد ثقافي يحتاج إلي وقفة جادة.
ولأن الشاعر يحب المتناقضات ، ويستخدم الأضداد ببراعة ، يفاجئه الشتاء دافئا ، طالعا ما بين الأكلسير وحضن البنت وخجلها وحمرة خدها ، ولنلحظ الصورة التي رسمها :

وخجلها وحمرة خدها
اللي تدفي الشمس

كذلك :

اتحولت كل البنات
ف الذاكرة
لموسيقى في موبايلي!

الكلاسيكية ، وإنما هي من مميزات النصوص النثرية ، ورغم تعقيد الصورة ,إلا أنها ميزت نصه وتمنحه مفارقة لنصوص تراوح في هذه المنطقة دون أن تشعر بالتكلف أو التصنع ، أما الزير سالم الفارس ، والشاعر المعروف بفروسيته وشاعريته كان تغلبيا وكان أخوه وائل بن ربيعة (كليب) دافع عن ابنة عمه جليلة ,أمام مطامع الملك التبع اليماني ، قتل كليب الملك اليمني داخل قصره وتزوج كليب حبيبته جليلة وصار ملكا أو زعيما لقبيلته ، إلا أن الغرور أصابه وقسى على قبيلته وجار على العادات العربية العريقة ,ليلعب الشاعر على الموروث الشعبي المؤسطر ، قصة الزير سالم المعروفة ,ثم يحيل ذلك إلى الواقع العربي المعاش في إسقاط غير خفي على ما يحدث أيامنا هذه :

إن شئت ، صالح سيدي
أو ... لا تصالح
كليب مصلوب ف أمريكا
وسالم في العسل نايم

فالشاعر قد وصل إلى مرحلة من الإحباط تتساوى لديه كل الأشياء فالمصالحة تستوى مع الحرب ,حيث فقدت الأشياء معناها ... فكليب مصلوب في أمريكا _ أما سالم في العسل نايم . لكن ينصح اليمامة بالصبر الجم ، لا لمحاولة صنع مستقبل مشرق ,لأن اليأس قد بلغ منتهاه .

أهلك وراحوا ما جوش
لا تقولي خال ولا عم !ولاغسلت النظرة
جنابة العتمة اللي بتمص ف حيطان روحي !

الصورة الممتدة المركبة المعقدة أحيانا ، والتي تحتاج إلى فك شفرتها مما لا تعهده في الكتابات العامية

عمك وما بيدورش
سكران بفعل النفط

لقد كان أمل دنقل ثوريا ، إيجابيا ، أطلق الصرخة مدوية متمسكا بموقفه – دافعا الثمن مقدما

لا تصالح ولو منحوك الذهب
أترضى أن أفقأ عينيك
وأثبت جوهرتين مكانهما
هل ترى
هي أشياء لا تشترى ؟!

لكن الشاعر هنا , قد رأى الحاضر والمستقبل , لقد تم البيع وانتهى الأمر , فماذا بعد أن

جليلة نوت الرقص
في الحضرة بالبورنو
بصت لأول نهد
والتاني عرت فيه

أما القصائد التي يحقق الشاعر فيها تفردا ، حيث تصاعد الرؤية وتنتقل من البسيط إلى المركب

اثنين ما يعرفوش
نفسهم
واحد ويعرفني

ثم يعود من جديد قائلا :

واحد
مخاوي حالات
ما بتطرشي
بيبدر ضحكتي جواه
فتتنبت
شجر ياسمين !

حتى يصل إلى رؤية هامة ، هذه الرؤية السوسيولوجية التي وصل إليها الشاعر بموهبة فطرية لا تشوبها الصنعة ، أو التصنع حيث المتأمل لمجتمع كالمجتمع المصري ، يحدث أن الشخص الفرد حينما تتاح له الفرصة يستطيع صنع المعجزات فعالم كأحمد زويل أو نجيب محفوظ ، تتجلى مكانة أحدهما متفردا ، حينما بدأ الظرف مناســبا ،ولكن في مجتمعنا قد يمثل " الجمع " عقبة عندما نختلف ويقف أحدنا في طريق الآخر ، ليكون الثلاثة إذا ما اجتمعوا ممثلين لكارثة حقيقية ، رغم أن

هناك مقولة يابانية تجزم بأنه كلما ازدادت أعداد المتعاونين ,كلما كان العمل أكثر إتقانا ولدينا في المعتقد الديني أن يد الله مع الجماعة ، لكنا –للأسف – حولنا العمل الجمعي إلى جحيم وسقوط .

واحد ..

اثنين ..

ثلاثة ..

ما اتفقوش !!

اتفق العرب على ألا يتفقوا , هكذا يقول الواقع المعاش, وكأن الشـــاعر يمارس لعبة الأولة أو لعبة الآهات مع جده بيرم بشـــكل غير مباشـــر :- الوجع إنك تكون رهوان ، فهذا شـــئ طبيعي .. جبال الوجع لابد أن تكون فصلاً لا وصلاً ! .

كذلك التســاؤل عن بزوغ الشــمس ، وكذلك وضــعية الشــمس والقمر طرفي نقيض لديه ! ، كذلك الجمل الجاهزة التركيب مثل : أصبحت ليه مجبر بمطاوعة الهفوات

فربما لو تروى قليلا لاستخدم " مغرم" بدلا من مجبر علاوة على أن كل العقبات السابقة لابد كشيء منطقي – أن تجعله مجبرا على أي فعل غير إيجابي ,خاصـــة في وجود جبال للوجع ,كذلك هناك غموض التركيب اللغوى الذي ينساق للشاعر مغرما بالصورة " محض اغتيال النشوة في عيونك للفتنة شيء مشروع

ومن المعادلات الرياضـية ,إلى اسـتخدام علم الفلك التي تفاجئنا عقب تسـاؤل رومانسـي للغاية في قصيدة " إشعاع حضورك بدا "

نجد بعض الزيادات التي كان على الشاعر أن يتخلص منها ، ففي أحد نصوصه " سكات "

ياهل ترى
للحلم في عيونك شروط ؟
طب كام مدار تايهين
في ليلها ؟

فإذ به يربط بين المدار المجازي للعيون والمدار الحقيقي المعلوم لناســا ، وينتقل من الواقعي إلى الافتراضي المحتمل من خلال تجديد التساؤل عبر فضاءات متباينة :

ياهل ترى للزهرة حق
احتلال أورانوس ؟

حاولت فك شـفرة السـطرين للوصـول للفهم غير الشـعري أولا ، حتى أصـل إلى ما هو شـعري من خلال تحليل بسيط تم كالآتي :

(1) الزهرة Venus إلهة الجمال ، أخت الأرض ، نجم الصباح ، نجم المساء .
(2) الزهرة Venus ثاني أقرب كوكب من الشمس .
(3) الزهرة Venus كوكب ترابي ، مثل عطارد والمريخ .
(4) الزهرة Venus أخت الأرض ، أقرب لتركيب الأرض وأقرب إليها حجما .
(5) الزهرة Venus يمكن رؤيته بالعين المجردة قبل الشروق مباشرة وقبل الغروب .
(6) الزهرة Venus ذو رياح شديدة ، حرارة مرتفعة تصل إلى 449°
(7) الزهرة Venus يقل وزنك إذا ما أقمت عليه .

وبالإنتقال إلى أورانوس Uranus نجد خصائصه كالتالي :

(1) أورانوس Uranus ملك السموات وزوج جايا الأرض وابنها .
(2) أورانوس Uranus سابع الكواكب الشمسية .
(3) أورانوس Uranus كوكب غازي .

(4) أورانوس Uranus أكبر من الأرض كثيرا ، يدور عكس الإتجاه .
(5) أورانوس Uranus درجة حرارة -210°.

ولحل شـفرة التسـاؤل يجوز / لا يجوز الاحتلال ، نجد أن الزهرة فينوس أقرب للشـمس في حين أورانوس أبعد.
فينوس أقرب للشمس في حين أورانوس أبعد .
فينوس ترابي في حين أورانوس غازي .
فينوس يرى بالعين المجردة في حين أورانوس لا يرى.
فينوس حار جدا في حين أورانوس شديد البرودة .
فهل يحق للزهرة احتلال أورانوس ، وهل وفق الشاعر في تعقيد اللغز حين يستكمل تساؤله

ولا لشيطان النشوة
حق العربدة في كوني؟

ليكون شيطان النشوة المعادل الموضوعي لفينوس الحار جدا ، وأورانوس البارد جدا ، أما المريخ أو مارس Mars إله الحرب الروماني والكوكب الرابع ، فهو يمثل 4/1 مسـاحة الأرض متباين درجات الحرارة ما بين العظمى 36 والصغرى 123!!
هذا ما فعله برمي الشاعر على جبلين من جبال Mars تحت مسمع وبصر الراعي الرسمي ناسا !! .

هل كانت هذه العلاقات المتداخلة تسـمح للشـاعر بالاعتذار لنيوتن وتغيير القوانين المتعارف عليها خاصة بعد إحداث هذا التضاد بين البرج الناري وبرج الحوت المائي .
متسائلا ثانية وثالثة عن إمكانية " التعادلية " في ظل شتاء هادئ العواصف ، قليل الأمطار ! .

مجموعة متباينة من القصائد للشاعر علاء سليمان ، فرضت نفسها بقوة على وجداننا ، ومشاعرنا ومعارفنا العلمية ، حرك بعضها علي الأقل داخلي غريزة المعرفة -، في خضم قصائد عشر كانت مفردات الشاعر ثرية ومتنوعة ، أجاد استخدامها من خلال التباديل والتوافيق ليضفي عليها حضورا مميزا في المشهد الشعري العامي السكندري لا يمكن تجاوزه ،.

فالشـاعر لديه قدرة على مزج مفرداته بجرأة يحسـد عليها وتوليد معنى ثالث يخصـه ، لديه خيال خصـب ومجنح – حتى عند وقفاته الذهنية لم يكن جامدا – لديه تكثيف رائع في كثير من جمله يعشـق التصـوير ،تؤدي إلى بلاغة عامية جديدة في هذه النصـوص التي طعمها بمفردات فصـيحة وفق في توظيفها في أحيان كثيرة ولم تكن موفقة حينا ، منحنا موسـيقا وإيقاعا خاصـا به ، حتى في بعض ما اعتبرته إيقاعا مضطربا ، كان له بعض المبررات .
قدمت لنا هذه النصـوص الشـعرية شـاعرا هائما في كل وادٍ ، لم يقيد تجربته في إطار محدد ، سمح لذاته الشعرية أن تحلق في ، أكثر من فضـاء ، مستخدما أكثر من إطار وأكثر من لغة ، حتى يمكن أن نقول أنه يتميز بتنوع الأسـلوب وليس أسـلوب محدد يمكن التعرف عليه من الوهلة الأولى ، كما كان يُمدح الكثير من الشعراء ، وكنت أرى أن الشـاعر الذي تتنوع أساليبه ، وخطوطه هو الشـاعر الأكثر تميزا وثراء . وعلى الشاعر علاء سليمان أن يتمسك بالفرصة السانحة أمامه وبتجربته البكر التي تنبت من خضارٍ شعري غض .

يحتاج إلى إرواء دائم ومكثف وأخذ الأمر مأخذ الجد ، أتمثل كفاح الشـاعر فؤاد قاعود على وجه التحديد وهو شاعر كبير على جميع المستويات ، يمكن لعلاء سليمان أن يكون شاعرا متميزا إذا ما

كانت القدوة ماثلة أمام عينيه ، وإذا اجتهد ليلحق بركب الكبار ، خاصـــة أنه حقق في كثير من هذه النصـوص رؤية شـوقى ، فقد اهتززنـا مع نصـوصـه وبها تعاطفنا مع باكو "ثوكولاتا " ، كما تماهينا مع اليمامة ابنة كليب ! .حساب الترابط أحيانا ولو كان مغايرا شيئا ما لمنطق الأشياء .

****

ليلة النطق بالحكم مجموعة قصصية للكاتب سراج النيل الصاوي

أوصـــي فلوبير موباســـان بالبحث وألا يكتب أقرب الكلمات التي تواتيه " ابحث تجد ، وعندما تجد الكلمة الملائمة اقبض عليها ، ضـعها في مكانها الذي وجد لها وحدها ووجدت له وحده " .

وتعد هذه الكلمات من أبلغ ما يمكن أن يوصـــى به ، أديب أو كاتب أو شـــاعر ، فإن تحقق المصـــداقية الفنية مرهون بها ، وقد تحار في عدم تقبلك لعمل ما ، بالرغم من وجود العديد من العناصـــر المكونة له ، فإذا ما بحثت عن العنوان ,وهو جزء من اســـتراتيجية النص , وعتبته ,تجده مناســـبا ، وإذا ما بحثت عن الخيال وجدته محلقا ، وبالبحث عن التصـــوير والفكر والمضمون ,لن تعدم وجودهم جميعا ، لكن هناك شيئا ما غير مكتمل ، ربما اللغة ، ربما الروح التي قامت بسبك كل هذا ، لم تصل إلى " جشطلت " سيكولوجي قادر على صنع هذه الكيمياء .

كذلك قد يضـع الطاهي ، نفس مكونات ومقادير طاهٍ آخر لكن هناك فرق هو فرق " الصـنعة " لا جدال في ذلك ، وهي قدرات وأحوال ومقامات على أية حال .
وباسـتثناء القصـص الواردة في المجموعة ،" ليلة النطق بالحكم " ، تلاحظ تنويهات أولية, قد تمنحك شـيئا من سـيكولوجية الكاتب وجوانيته ,التي قد تكون مختبئة تحت سـتار حلته الميري سابقا.
لكن جوهره الإنساني والأدبي ، يعلن عن نفسه – ربما رغما عنه – في فسيفساء الإشارة .

فيشير إلى لوحة الغلاف الخارجي ، وأنه للفنانة الشابة ندى ويعاتب ، دور النشر واتحاد الكتاب حول الأزمة الأزلية للنشر ، ثم يتوجه بالشكر للزملاء الذين زاروه أثناء مرضـه ثم إهداء إلى رموز العدالة بكافة طوائفها .
وهذه الإشارات تشي بسيكولوجية الأديب وهي جزء لا يتجزأ من شخصيته التي تنعكس – شاء أو لم – في كتابته ، هذه الإنسانية وهذا الود والشجن.

تلعب تيمة " الشيخوخة " دورا رئيسا في هذه المجموعة فالأبطال أو الشخوص الذين يعيشون شيخوختهم تراهم في قصـص طمأنينة ، مشـكلات ، اعتراف قبل الرحيل ، شـجاعة خوف ، 4 مقاعد لكبار السن .

ورغم تنوع الأبطال ، إلا أن شيئا ذاتيا يتسم بالقوة والتفاؤل يتسرب من روح الكاتب ,ليسري إلى شـخوصـه ,رفضـا للاسـتسـلام المقيت لأوقات صـعبة قد تمر على آخرين مليئة بالمرض والوهن والقلق والاكتئاب ، رافضـــا أن يعيش وقتا حرجا بعاني الانتظار والترقب ، وأن يزرع فسيلة حتى لو قامت القيامة ! .

تتمسك السيدة العجوز بشقتها ترفض النزوح بعيدا عنها رغم إلحاح ورغبة ابنها الشاب تســـتطيع قتل الوحدة , بالتحدث مع الجيران ، لكن الذكريات مع الزوج الراحل ، في انتظار مرور سـاعي البريد ، رغم مسـاوئ الشـقة وتشـقق جدرانها ، والرطوبة الضـاربة بأطفالها في أنحاءها ، ترفض الرحيل ، ربما كان ذلك معادلا موضـــوعيا لرفض الموت ، يخرج فأر من جحره باحثا عن مكان لإيوائه, قد يكون أفضل وأرحب ، يغيب الفأر ثم يعود إلى نفس الجحر ، البالوعة ، ثانية ، تبتسم العجوز تطمئن لخيارها بعدم المغادرة .

تتماهى العجوز والفأر في لحظة السكينة ، وها هي سيدة أخرى قد تبدو ميسورة ليدها قطة اعتادت أن يتصل بها أحد لإتمام التزاوج بين قطتها الشيرازي من سياج السور تضرب بالعصا ,لكن إصراره كبير ، ضربته بالعصا ضربا مبرحا ، هرب متوجعا ، كانت المفاجأة ، تحن إليه القطة " بنت الأصول " لتفر خلف القط البلدي الذي لا أصل له ، تتذكر السيدة – العاقلة – أنها كانت ترفض زواج ابنتها سوزي من زميلها بالجامعة ، قررت أن تدعو الولد ليزورهم بالمنزل ، تذكرت أزمة الزواج العرفي ، وزواج الدم ، وزواج الفريند .
خشيت أن تفر سوزي – بنت الأصول – المعادل الموضوعي لها القطة الشيرازي مع القط الولد الذي قد لا يكون ذا حسب ونسب ، تعقلت السيدة ، وحلت المشكلة ، بدعوة الولد لزيارتهم فورا !.

أما من القصص التي تبرز هذا العطف ، والأمومة الحانية "اعتراف قبل الرحيل " ، تثقب الأم دراجة طفلها حتى لا يصاب بمكروه إذا أخذ دراجته ويذهب بعيدا ، يمل منها الطفل ويضطر لبيعها بثمن ، الغريب أنه كان مناسبا تكشف له الأم حقيقة كانت قد خبأتها طيلة السنين الماضية أنها هي التي كانت تثقبها لخشيتها عليه ، بل ومنحت بائع اللبن مبلغا من المال حتى تغري ابنها بالبيع ، اعترفت الأم وهي على فراش المرض والموت بذلك .

هذه اللقطات الإنسانية التي استطاع الكاتب القبض عليها وحبسها في صفحتين أو يزيد قليلا ليتمكن من تشكيل بنية سردية غاية في البساطة ، والسلاسة ، استطاع منح البساطة عمقا ليكون في معظمه ، سهلا ممتعا ، قادرا على تحقيق هدفين في آن المتعة والفائدة ، ليكون دور الفن لديه دورا مزدوجا لا تعارض فيه ، ليحل إشكالية طالما صدعنا النقاد ببحثها والشجار حولها وكلما اتسعت رؤية الكاتب كلما كانت عباءته قادرة على التواصل النفسي والعقلي مع القارئ المتلقي دون حواجز ، فيمكنك قراءة قصته ، شجاعة خوف هذا العنوان الذي يحمل من التناقض الكثير لترى ذلك التواصل بين الأجيال والخوف المتبادل بين الجدة والأم والحفيدة والقطة والرجل العجوز في آن واحد ، لينساب حوارٌ شديد التناغم يسكنه الصفاء النفسي الطفلة:-

- بِس بِس ...خائفة ؟ ... تشجعي .. لا تعرفين طريقة النزول ؟
- (القطة) .. نِو نِو
- إنزلي على الحائط قليلا ... ثم اقفزي للأرض
- نِو نِو
- لاتخافي .. قطتنا تفعل ذلك
- نِو نِو

يستمر الحوار ويتعالى المواء ويتنوع صوتا " أتخيله "وتزداد القطة خوفا وارتعاشا ، وبالرغم من أن الحوار كان فصيحا ولم يكن عاميا فإنك قادر على تفهم رغبة الكاتب في صياغته هكذا ، وأنه كان يمتلك القدرة على التواصل بلغة فصيحة لا تقل عن قدرته العامية .
أما قصة وفاء فهي تعلب على فكرة تقليدية الزوجة غير الوفية التي تذل زوجها الذي يمر بمحنة بعد أن كان غنيا استطاع توفير حياة غنية وقصر مشيد ، فبزوال المال ورهن القصر تبادر الزوجة بالخلع ، يضطر الزوج لبيع كل شيء ,حتى الكلب الذي يشتاق إليه وبعد فترة يجد أن الكلب قد مات لأنه لم يحتمل فراق الرجل وبرغم تقليدية القصة إلا أن بطلها كان جروا لم يبدأ بالرجل ومشكلته أو دناءة زوجته ، بل بعلاقة الجرو بصاحبه ، ليكون بطلا للقصة بلا منافس ! .

أما " الضجيج المستحب " فهي قصة تنتهي نهاية مقلوبة فالقصر المجاور تحول فجأة لمدرسة تقض مضجع السفير العائد وزوجته بعد هدوء كانا يتمتعان به ، ويفكران في الشكوى أن في التفاهم مع الجيران لإثنائهم عن تحويل القصر إلى مدرسة ،وإذا بمفاجأة أن الابن المسافر يتصل بهما ,فيخبراه على ما ألم بهما من إزعاج تكون المفاجأة أن الابن سيعود ، ويستحسن حدوث ذلك ليكون ابنه الحفيد قريبا في السكن ، ليتبدل الحال وتصبح فسحة المدرسة الصاخبة مسار فرح وسرور للجدين , يبحثان عن الحفيد شريف ويسعدان بتلويحه لهما .. لم يعودا يستمعان للضجيج بل لا يصل إلى مسامعهما سوى ضحكات الصغار , ولا يريان سوى ابتسامة الحفيد .

هذه اللقطات الإنسانية التي تجمع الحلم ، حلم الراحة والتخلص من أعباء الوظيفة كسفير ، وأن التقاعد سيكون أجمل في منزل هادئ ومنطقة هادئة ، فإذا الحلم يتحول إلى كابوس ويقرران الشكوى ، لكن تليفون الابن يحول الكابوس إلى واقع شديد الجمال وإن لم يكن موجودا لأوجدوه مرتاحي الضمير .

هنا تتنوع تكنيكات التناول لدى الكاتب ، يلعب على عنصر توالي المفاجآت ، مفاجأة تليها أخرى ثم المفاجأة الأخرى تليها مفاجأة ثالثة ، وتعود بالزوجين إلى الحلم الأول ، يضن الكاتب على الشيخين بالإشكاليات المزمنة ، فهما غير جاهزين لمواجهة مشكلة ما كهذه في خريف العمر وتجربتهما وخبرتهما القانونية تتيح لهما مقاضاة الجيران ، وقد عزما على ذلك ، لكن رغبة الابن التي مثلت مفاجأة لهما ، حولت الكابوس إلى حلم رائع الذي تحول واقع أكثر جمالا من الحلم .

لنعود إلى العنوان مرة أخرى "الضجيج المستحب " ذلك التضاد الذي يستخدمه للمرة الثانية في المجموعة لا يفصل بين القصتين سوى قصة واحدة ! .
تختلف قصة " ليلة النطق بالحكم " فهي قصة القلق والألم والضمير القاضي بين الأوراق والنيابة والواقع ، يقرأ القاضي الواقع ، وينحاز إليه انحيازا كاملا ، ينحي جارو وعلى راشد والقللي وكل فقهاء القانون ليحكم بأدنى عقوبة على وقف التنفيذ ، يستدعى القاضي عمر الذي أوقف حد السرقة على الجائعين وليت قومي يعلمون ، أخذ القاضي بفقه الواقع ! .
وبرؤية مغايرة يرصد نزق الشباب في قصة " ولع " الشاب الذي تسحره العيون الملونة في فرنسا ، وينتقل من ولع إلى آخر علامة على سعادته بالولع الفرنسي بكل ما هو مصري وعندما تصطحبه إحداهن إلى الجناح المصري في اللوفر تصدمه المرشدة بالتحدث عن شامبيلون وعبقريته بفك رموز حجر رشيد فتنطفئ الإبتسامة لديه ، وتتحول في نظره كل العبون الملونة إلى حجر متجمد ، غلبته وطنيته ، يتساءل بسخرية أين الهوس بكل ما هو مصري ؟ ، أما بريجيت والإنتخابات ,نجد برجيت تنحاز لما هو في صالح فرنسا ، مرة تنحاز إلى اليسار و أخرى إلى اليمين وفق ما يقدمه الحزب من برامج في صالح البلد , ولا شك أن ما تمر به مصر الآن يجعلنا نجد إجابة السؤال لماذا السخرية السخرية من الشاب الذي يسافر إلى الخارج ويدعي أنه "فتك "وأنه قادر على الإيقاع بالفتيات الفرنسيات تحت دعوى تعلم اللغة, فإذا به يقع في فتاة برازيلية توقعه في دعوة على العشاء هي وصديقها ويعود خالي الوفاض ، وتتخلل المجموعة قصة قبلة الوداع ذات الطعم المختلف ، والمذاق المغاير لباقي المجموعة ، فهي قصة مصرية تقليدية ، يتذكر الطبيب حبيبته التي أحبها أثناء الطفولة ، فلا تمر دقائق ، حتى يصرخ البعض بأن سيدة تحتاج المساعدة الطبية ، يسعى لمنحها قبلة الحياة ، لكنها تموت ، يكتشف أنها حبيبة الطفولة ، ولا شيء غير عادي ربما الإسم " موزة السيريلانكي " ولا اعرف لماذا السيريلانكي علي وجه التحديد! .

تتعرض " 4 مقاعد لكبار السن " لمشكلات اقتصادية وأخلاقية ومجتمعية وقيمية هي السبب الرئيسي لتدهور الأوضاع في البلاد فترك حل أزمة وسائل المواصلات للضمير فقط هو خداع

للمواطن ، فالدولة التي تتنازل عن تقديم الخدمات المناسبة ، مقعد لكل مواطن أو رغيف خبز لكل مواطن ، دولة ستنهار حتما, دولة لا توفر رغيف الخبز هي سيارة متعطلة في نهر الطريق سوف يتركها أولادها لتنهشها الذئاب ، هكذا نزل الشباب لا كما ظن الآخرون أنهم سوف يساعدون في دفع السيارة بعيدا عن قضبان الترام ، لكنهم يسيرون إلى البعيد ، ربما يهاجرون بشكل غير شرعي إلى دولة أخرى وربما يغرقون جميعا ، لكن لا شك أنهم يشعرون بالملل والسأم من بلاد غير قادرة على توفير أبسط حاجيات المواطن البسيط !.

بدا واضحا ما سمي ب Generation gab أو الفجوة بين الأجيال مما ذكرني ب " كلهم أولادي All my sons وكيف أن الكبار سناً أو منصبا قد توحشوا وحصلوا على فضيلة كل شيء ، فجيل الآباء عاش الحرب والسلم والفقر والغنى ، واستفاد من كل فضائل الظروف المختلفة ، فهو يفخر بكونه محارب قديم أوأن أحد أقاربه كان شهيدا ، وأنه تزوج في سن مبكرة وبعدة جنيهات كانت المساكن تُبخر لاستدعاء السكان وحصدوا كل فوائد الظروف المغايرة والمتناقضة ، لكن الجيل الحالي هو جيل ضائع لم يجد نفسه محاربا مدافعا عن الوطن ، ليدعي الشجاعة والفروسية ، ولم يطله سلام حقيقي لينعم بالرضا ، وصارت الجدران الأربع وهما ودربا من الجنون, بل إن الحصول على رغيف خبز هو من دواعي السرور والفخر إذا تم الحصول عليه إن خرج الشاب سالما من طابوره الطويل ! .

أما " شكوى للرئيس " فهي قصة تنتمي لحقبة الستينات ، تمثل الحنين إلى الماضي والناصرية المعشوقة لكثيرين ، لقد نجح الرجل البسيط في إيصال الشكوى إلى الرئيس ، لكن التساؤل الحقيقي والهام , هل وصلت الرسالة ؟ على المستوى المعنوى ، لا احتاج إجابة ، فمازلنا نرسل رسائل قبل الثورتين وبعدهما ولا من مجيب ! .
أما " ابن ليل " فهي قصة تدق ناقوس الخطر وتكشف زيف عدم وجود الجريمة الكاملة ، وتكشف نواقص كبيرة في هذا الجهاز الشرطي الرهيب ، الذي يخيف اسمه حتي أقوياء القلوب الشجعان ليكشف أن ابن الليل هو القاتل والمجرم الحقيقي وهو البلطجي الذي – لدواعي السخرية – صنعته الداخلية دون قصد ، فهو الذي يصيب الضباط ويهاجم نقاط الشرطة ويسرق سلاحها الميري ويلجأون إليه لاستعادة المسروقات وبلا شك ينجح في ذلك أيما نجاح ، وسط ذهول أفراد الجهاز المتين ! .

يختتم مجموعته بقصة بسيطة ، يسخر منها من أحدهم الذي يظن أن الفتاة تغمزله بعينها ويدفع أكثر من المطلوب في الشقة المفروشة على أمل أن يحظى بعدة نظرات أو ابتسامات أوما هوأكثر
ليفاجأ ويصدمه البواب بأن الفتاة لديها شلل نصفي وأن هذه الغمزة هي حركة عصبية لا إرادية نتيجة المرض ! .

اعتمد الكاتب تكنيكات ساعدته على تحقيق تواصل إيجابي مع المتلقي فالتكثيف والجملة القصيرة المركزة ، تسبق اللعب على عنصر المفاجأة ,علاوة على تنوع النهايات بين نهاية واضحة وأخرى واعدة وثالثة مقلوبة ، بالرغم من كونه لم يكسر حواجز الزمن السردي ، وفقا لمقولة يحيي حقي أن القصة الجيدة هي ذات مقدمة جيدة ، فإن نهايات ليلة النطق بالحكم كانت هي المحك للحكم على جودة المجموعة ، وليس المقدمة المحذوفة ! مع حبي واحترامي ليحيي حقي بالطبع .
تنوعت الشخوص ,كما تنوعت المرحلة السنية من الشيخوخة إلى الكهولة إلى الطفولة ، كما تصدر الحيوان المشهد ليظهر بطلا حقيقيا في أكثر من قصة القط ، الفأر ، الكلب كما اعتمد اللقطة الموحية وعمد إلى تصعيد الحالة الشعورية في معظم قصصه ، مما منح الرؤية والفكرة عمقا إضافيا ، ليصبح ما يُرمز إليه فائضا دلاليا يمكن ازاحته إلى الواقع عبرمخيلة المتلقي ، لم يصطنع الكاتب

لغة غير لغته ، فاعتمد الفصـــحى لكتابته ، حتى أنه قام بفصـــحنة بعض العامية ، وإن لم يكن ذلك محببا ، فقد يفقد المعنى والمغزى العامي فلكلوريته لتراثية الدلالة ، فتفصـيح العامي يضـعفه عكس ما يظن البعض .

كما عمد الكاتب إلى تنويع المكان الخروج إلي الترام بعيدا عن الفيلا والقصـــر ,فكأنه يعمل على تصـــنيع فيلم تتعدد فيه المشـــاهد بين طائرة وترام ووقفات وإشـــارات المرور ، وبالرغم من تنوع النهايات واعتمادها على عنصـــر المفاجأة معظم الوقت إلا أنه لم يكن راغبا في جذب القارئ إلى النهايات المفضـلة أو النهاية الإشـكالية ، فلا يفضـل الأحاجي والألغاز أو أن يكون المتلقي مشـتت الذهن باحثا عن حل لأزمة ما ، كان لديه الوعي – نتيجة للخبرة العميقة وسنوات الحياة المديدة أن يسـبر أغوار المجتمع وأن يسـتفيد من أسـرار العمل ويترك له بعضـا من التأمل ,يمكن له – لو أراد – أن يتدخل لإكمال نهاية القصـــة أو تغييرها أو التعقيب عليها قبولا أو رفضـــا ،و قد أتوقف قليلا عند جمل ثلاث

ص 58 في نهاية قصـــته " قبلة الوداع " أراها زائدة لا داعي لها فهي على الأقل إن لم تكن كذلك فلا تقدم شـيئا جديدا ، فما مغزى أن يشـرح لنا الكاتب أن الطبيب قال في سـره :- ياإلهي , إنها هي أول من أحببت , ثم يجهش بالبكاء ؟ .

فهذا قد عرفناه منذ السطور الأولى للقصـة ، يمكن القول أيضـا أن بعضـا من السيرة الذاتية قد تخلل القصـص والكثير بالطبع من السـير الغيرية ، كما اسـتوقفني اسـمان في قصـتين أخيرتين متتاليتين الأولى الدهشـــان والثانية رشـــوان وربما يجعلني ذلك أتســـاءل :- هل هي القافية أو هو التداعي ,قد حكما أن يكون ختام الأول بالبطل الدهشـان ، وافتتاح الثانية بالبطل رشـوان ؟؟, ربما تكون ملاحظة شكلية عرضية ,لكنها تمثل لي أهمية عند تقييم سرد ما .

لا يسـعني سوى أن أتوقف عند هذه المجموعة ، لأقول صـادقا أنها أول مجموعة في الفترة الأخيرة تلفت نظري وتســتوقفني لاقرأها بشـــغف ، مما يعني أن كاتبها قد اختمر داخله الإحســـاس بســـرده فتحقق لديه الصـدق الفني ، فكان قادرا على استدعاء مماثل لقارئه ومتلقيه ، معتبرا إياها مكسبا لفن القصـة القصـيرة في السنوات الأخيرة .

"حديث الدين والسياسة وصراع المصالح الشخصية" لعبة فقد الوطن

وثائقية أصوات تؤرخ نزيف البلاد " حفنة من الأرذال –

رواية لمحمد الجمل

" طبيعة شخصية السادات – أصر أن يكون محور كل شئ فأصبح مع الوقت هدف كل شئ وأصبح البؤرة التى تركز عليها الغضب العام " (1) بهذه العبارة التى اختتمت بها رواية حفنة من الأرذال أصواتها , يمكن مقاربتها كعبارة افتتاحية بامتياز ، بل عنوانا وعتبة للنص ، تصلح أن تكون عنوانا لا للرواية فقط ,ولكن عنوانا لحقبة كاملة ، مرت بها البلاد واستغرقت ما لا يقل عن ستين عاما ولحسن الحظ أن عنوان الرواية : " حفنة من الأرذال " هى جملة السادات الى قالها فى خطابة الشهير واصفا كل معارضيه الذين اعتقلهم عن بكرة أبيهم!
عاني السادات كثيراً منذ نعومة أظافره ولاقى من التهميش والسخرية - حتى من أعضاء مجلس الثورة ، زملاءه - ذلك إذا أردت تحليل سيكولجية السادات - أنه رجل لديه قدرات متعددة ، قد تفوق كثيرا من المحيطين به ، لكن الغريب ، أن الأقل قدرة ـــ قد يجدون الاستحسان والتصفيق والأعذار لأخطائهم في حين أنه كان دائما محل انتقاد دون هوادة ، حتى حرب أكتوبر العظيمة لم يتحمس كثيرون لدور السادات فيها ، حتى أن بعضهم قد اقام ناصر من الأموات وجعله هو صاحب أكتوبر وصاحب الاستراتيجية والتكتيك ! اذن هل كان ناصر يحتاج إلى عامين إضافيين للسبعة عشر عاما التى حكم البلاد فيها لينسب إليه انتصار رمضان العظيم ؟ ، استكثروا على السادات عامين للتجهيز للحرب وخرجت ضده الاحتجاجات والمظاهرات من كل صوب وحدب ، كان السادات قادرا على الامتصاص واستخدام الحيل الدفاعية بمهارة ، يضغط كقطعة الإسفنج لآخر مدى من التوتر ثم يكون رد فعله بنفس قوة مضغوطيتة ، كما كان قادرا على فعل الشئ ونقيضه معتمدا على " حدس خاص " لا يشاركه فيه غيره ، لكن السادات كان قد وصل - فى نهاية قصته - إلى عدم الاحتمال ، لم يعد السن ، ولا الوضع ولا حقائق الأرض تتطلب منه ميكانيزمات الدفاع المعتادة ، و التى كانت كفيلة بحمايته ، خاصة وأنه الرئيس –ربما الوحيد الذى يسخر منه شعبه ووزاراؤه ومعاونوه !، رغم ذلك, كان قادرا على إنجاز ما كان يخطط له ببراعة فى تلك الأجواء .

كان السادات ينظر لشخصية كعبد الناصر ارتكبت وارتكبت فى عهدها أخطاء وخطايا لم يرتكبها هو ، بل لم يرتكبها الملك المخلوع نفسه ، لكن ناصر كان قادرا على سحر المصريين والعالم بأخطائه الكبرى - هل كان هناك من يغذى تلك المحبة تخديرا للشعوب العربية التى لم تكن سوى أصوات حنجورية كان من نتيجتها احتلال سيناء و الضفه والجولان ؟ والغريب أن السادات الذى استطاع استعادة سيناء كامله إلى حضن الوطن لم يتقبله شعبة بقبول حسن ! ، الإخوان والجماعات الإسلاميه التى سعى السادات بإيمانه وحسه الإنساني، لإخراجهم من جحيم معتقلات ناصر , انقلبوا عليه وتصيد كثير منهم الهفوات ليهينه .

وانتهت حياة السادات فى يوم ميلاده الحقيقي مكافأة له لأنه انتصر ولأنه هدم المعتقلات ولأنه آثر أن يقى مصر ردة فعل قوية ضد حرب العاشر من رمضان رغبة منه في نصر معنوي لأكبر فترة ممكنة ، ولأنه دخن البايب ! ، ولأن السادات بشر ولأنه ينتمي لما يسمى بالعالم الثالث ، كان من الصعب أن يحتفظ بهدوئه وحدسه الخاص فبادل المحتجين التلاسن والسباب بل استخدم سلطته في سجن المعارضين لمعاهدة السلام ، صفوة المجتمع ، وكأنه الحاكم بأمره يفعل ما يشاء ! .
فمثل صداعا في رؤوس الجميع الداخل والخارج ، الخارج لا يعرف خطوات الرجل القادمة ,ليس لديه خطة يمكن قراءتها وبالتالي خطوته غير متوقعة دائما – والداخل يتمتع كثير من مواطنيه بالأحادية فلا يفهم كثيرون ثنائيات العالم ، العلم والإيمان الأدب والعلم ، الدين والدنيا ، كثيرون يفهمون شيئا واحدا ، البعد الأحادي إما , أو إما متدين أو لا , إما ناصري قح وإما فلا , إما إخواني أو لا شيء ! ، فلا يمكنك نقد أحد يدعي انتسابه للدين مهما قال ولا هو مسموح لك بنقد ناصر لأنه لا يجوز ولا يتصور. .

المسموح بانتقاده وتجريحه هو السادات ومن الجميع دون استثناء مسلمين ومسيحيين ، مدنيين وعسكريين ، حكم الرجل في مناخ فيه كل شئ ضد ! والغريب أنه نجح في تحقيق الكثير بالرغم من كثرة العقبات ! لكن الشيء المؤكد لي ، أنه كان مشغولا بالتاريخ والخلود ، وكان مندهشا من المشاعر المصرية نحو عبد الناصر والمشاعر العكسية ضده رغم اعتقاده بأنه صلاح الدين الجديد وبالفعل لو كان ناصر هو الذي حقق انتصار أكتوبر, لنصبت التماثيل لناصر في كل شبر في أنحاء الوطن العربي ولربما عبدوه !.
كان مناخ الكراهية والمناوشات يسود البلاد ، الناصريون والإخوان ، ومراكز القوى والعدو الخارجي ضد السادات الذي كان يؤمن إيمانا كاملا بأنه على صواب ، وأن الشعب سوف يستوعب لاحقا !.

وبالرغم من كل شيء فلم تكن الحريات هي المشروع المطروح ولا الديمقراطية ، كانت التحديات الخارجية والكيان الصهيوني المتغطرس الشغل الشاغل والرغبة في الثأر من هزيمة حزيران هم الشارع والقيادة ، لكن ضغط الشارع على السادات كان رهيبا وكان محملا باتهام وتشكيك في النية والرغبة والإرادة ! وكان السادات قارئا جيدا للمشهد المصري والعربي بل والعالمي إلى أبعد الحدود ، يعرف قدراته حيدا ، وأن العالم العربي دون مصر شديد العجز ، وأن العالم لن يساعدنا لننتصر ، وأننا لا نملك كل مفاتيح النصر ، وأن الانتصار يحتاج إلى معجزة حقيقية ، ولو فقدنا أحد أهم العناصر وهو المفاجأة سنخسر المعركة وربما احتلت أجزاء أخرى من مصر ، وربما علق هو شخصيا علي أعواد المشانق أو ضرب بالرصاص ، لأنه ليس ناصر,فلناصر رب غفور ! .

لم يكن ما تقدم ذكره هو شيء على سبيل التقديم أونوعا من التمهيد لقراءة رواية،بل هو قراءة في الرواية ذاتها "في القلب "
فالصراع السيكولوجي داخل كل القوى والأزمة الوجودية لدى الناصريين والإخوان والوفديين واليسار بالمقارنة الظالمة بين حقبتين بل بين شخصيتي ناصر والسادات ، كان محركا لأحداث هذه السرد ، وربما لولاه لكان لمصر شان آخر! .

تدور أحداث الرواية في سجن مزرعة طرة ، حيث اعتقال مجموعة من خيرة رجال مصر ، اجتمع العشاق في سجن "طرة "، بكل ما يعني المكان من تقييد للحرية وقهر لنخبة من كبار مثقفي مصر ، لكن أحدا لن يقدر على حبس مصر ! ، اجتمع المسلم والمسيحي الناصري والوفدي والاخواني واليساري ، لقد قرر السادات سجن مصر كلها ، كي لا يعلو صوت فوق صوت المعركة ، حتى يتمكن من استرداد سيناء في إبريل القادم ، هل هذا مبرر ؟, هل هذا تصرف صائب يارجل؟.
هكذا برر الإله قراراته ، مجرد عدة أشهر وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه ، فقد الزعيم بصلته وحسه الصوفي " تخلى عن عبقرية الامتصاص ، صار يتعامل مع خصومه بنفس طريقتهم ونفس أسلوبهم ، وحينما يفقد المرء أسلوبه يتحول إلى لا شيء نوعا من المسخ ، ويفقد ميزته التي حباه الله بها ، وكانت أفضل مميزاته أن رد فعله غير متوقع دائما ! ألم تكن هناك طريقة أفضل ؟! .

اجتمع "منصور فايق الناصري ومختار مجاهد الإسلامي وعبد العزيز أمين اليساري ووهبي خميس البراجماتي ورجل كل العصور ويحيي كامل الفقيه الدستوري ، وإبراهيم بهجت الوفدي وطلعت منصور ابن منصور فايق "طلعت منصور – يمثل جيلا مختلفا ، تطورا جيدا للثائر غير التقليدي - ، وحسني هلال الصحفي في مكان واحد بقرار من الرئيس المؤمن ، وبالرغم من تباين الشخصيات المعتقلة ,هنا إلا أن قرارات السادات الأخيرة كانت كفيلة بتوحيدهم نفسيا وفكريا ومكانيا، ولو لفترة قصيرة من الزمن كما يقول حسني هلال ص 23 " مختار مجاهد يقرأ كتاب

القرآن ، وعبد العزيز أمين يقرأ كتاب اليســـار الوطني وإبراهيم بهجت يقرأ كتاب " رجل لكل العصور " ، الوحيد الذي يجمعنا كتاب السادات .

صنعت قرارات 1981برلمانا عظيما لم يحدث في تاريخ مصر مقره مزرعة طره ، كما ورد على لسان حسني هلال ص 24 " دعونا نجاري ما قصد إليه يحيي كامل ، لنمثل رئاسة مجلس نيابي أسير ، جرى تعيينه بسلطة القهر لتمثيل إرادة الشعب ، ولا مانع من أن نتشاور في بنود إعلان دستوري ، ربما يرى النور بعد زوال الغيمة ، إن سقطة السادات المروعة تشبه سقطات ناصر ، كما يقول طلعت منصور " سقطة عبد الناصر أنه أهمل مبدأ إقامة حياة ديمقراطية سليمة " ص 35 لقد دعا كل من محمد نجيب وخالد محيي الدين للديمقراطية والحكم المدني ، لكن العســكر عزلوا نجيب وحددوا إقامته للأبد ، ليصبح ناصر أصغر رئيس وزراء لمصر ثم أصغر رئيس لها ، لم يكن ناصر مستعدا لترك السلطة تحت أي ظرف ، فروح القائد تملؤه ، حتى خطاب التنحي كان يعرف تماما أنه – التنحي – لن يكون ! وأصبحت هزيمة 67 المتنفس للمعارضين من الإخوان وغيرهم ليقولوا في سرهم " جاء الفرج " لقد كانت هزيمة الإنعاش ، يمكن أن نقول أن ناصر البروباجندا اختلف تماما الآن ، لم تقنعه حرب 1956 ولا حرب اليمن ولم تفقه حادثة الانفصال عن سوريا ، لكن 1967 كانت ضربة قاسمة ، وتحذير قاس للزعيم وإعلان خيبة من نوع مختلف ، وأن كل ما مضى لم يكن سوى هراء وأن القادم لابد أن يكون مختلفا ، وأن ما عاشته مصر – عبر العديد من الأبواق – لم يكن سوى خدعة كبرى ، وأن التعذيب في المعتقلات والإعدامات لا تحمي الأنظمة ، وأن الحرية والديمقراطية وتبادل السلطة هي الحل الوحيد ، ولا صحة لمشروع الحاكم الإله أو على أقل تقدير الديكتاتور العادل .

كان طرة أفضل مناسبة ليجتمع ثمانية من أفضل مثقفي مصر ونخبتها بل قل أن الكاتب جعلهم رمزا لهذه النخبة ، كل بثقافته وانتمائه وثوريته وخنوعه أحيانا وأفكاره المثالية أو المريضة أحيانا أخرى ، كان السجن مثاليا غير معهود أيام ناصر – ربما لأن الضباط أنفسهم لم يحبوا السادات فلم يتبنوا التعذيب بإخلاص ضابط مسيحي يحترم وضع المعتقلين ، يحترمهم ييسر لهم التجمع في زنزانة أحدهم ، يسرب لهم كل ما يستطيع من طعام ووسائل إعاشة تجعل اعتقالهم أكثر راحة أقلام وأوراق ومحبة لماذا لم يظهر هذا الضابط في معتقلات ناصر ؟ مجرد سؤال

قدمت الشخصيات نفسها بطريقة أنيقة معلبة ، رسمت كل شخصية سماتها ، كما أرادت وبعناية مفرطة ، لم تترك لك اي شخصية فرصة التخمين أو التساؤل عن أبعاد أخرى أو تساؤلات المسكوت عنه ، وإذا كانت تساؤلاتك مشروعة ,فإنك قادر على اكتشاف المزيد حولها من معطيات كثيرة ، بعضها بين السطور فيمكنك عبر حوار مستمر ونقاش لا ينتهي قراءة الكثير عنها ، لا يتدخل الكاتب في رسم الشخصيات ولا تطوير الأحداث ، ولا يرتدي قناعا لراو ، إنما يمارس شخوصه سلوكهم بمفردهم دون وصاية أوتوجيه ، يتوحد عنصرا الأمة في سجن المزرعة فبالرغم من عدم وجود مسيحي سجين معهم ,إلا أن الضابط مأمور السجن مسيحي شاعر رومانسي يمكن حسني هلال من بعض الطعام المدني ، وبعض الأوراق وفترة من الوقت للتريض .

كان يمرر كل ما يمكن تمريره لتحقيق راحة السجناء ، ومما يخفف من محنة الاعتقال ، ويمنحه فرصة استضافة ما يشاء من المحبوسين في زنزانته لتتحول الزنزانة إلى منتدى سياسي أو بنسيون من بنسيونات نجيب محفوظ ، وربما هايد بارك مغلق وليس حبسا انفراديا ، يتمكن الضابط من المواءمة بين طبيعة عمله وبين ما يمليه عليه ضميره وإنسانيته ، شخصيات متنوعة غنية متباينة الأصوات تمايز الصوت الإخواني عن غيره الناصري عن الرأسمالي دون تدخل أو توجيه ، كل الشخصيات تستخدم ضمير " الأنا " ، شخصيات ترفض أن يؤلفها أحد ! ترفض أن يكون هناك

متحدث رسمي باسمها على الإطلاق ، فيقول حسني هلال " كانت الثانية صباحا يوم 3 سبتمبر 1981 عندما سمعت طرقات على باب مسكني ... ص 7.

كذلك منصور فايق يقول " لا أظن أحدا قد يمر بمثل ما مررت به من مفارقات عجيبة ، تصلح أن تكون مسلسلا دراميا مأساويا ؟ "ص 25" أما وهبي خميس فيقول " لم يكن صعبا أن تفهم نظرات الدهشة والاستغراب التي حاصرتني وأنا داخل الزنزانة كشريك مجموعة الشجناء الذين اختارهم حسني هلال ص 97 .
كما نقرأ حديث الأنا لدى العزيز أمين " اعترف الآن بأنني تنبهت إلى مفارقة سياسية مدهشة ، وأنا أعيد قراءة تجربتي النضالية ص 57 .
أما الإخواني مختار مجاهد في افتتاحية الحديث عن نفسه " لم أكن أتصور أن لقاء الصدفة الذي جمعني بالشيخ حسن البنا في الإسماعيلية 1928 سوف يؤدي بي إلى دخول السجن أربع مرات عبر ثلاث حقب ! .

تعد الأنا أحد مميزات رواية الأصوات والتي نلمح صداها ولو بشكل غير مباشر في أعمال كثيرة ,قد تكون لدى نجيب محفوظ في ميرامار والزيني بركات للغيطاني على سبيل المثال ، لكن رواية حفنة من الأرذال " تعد رواية أصوات متفردة بل هي رواية أصوات وثائقية في آن واحد ، وربما رغب – تجنيسا – في أن يضيف إليها ويجعلها رواية أجيال – تشبها نجيب محفوظ- لكن ذلك لم يكن وتغلبت الصوتية الوثائقية بشكل واضح لا يمكن تجاهله مطلقا ، فكما يقول محمد نجيب التلاوي عن رواية الأصوات أنها حرصت " على العمق المكاني وقصر الامتداد الزمني ,مما ساعد على استحضار المتناقضات وتكثيف المواجهات وتفاعل الأصوات بالحوارات " .

عمق شخوص الرواية زمنها بالرغم من امتداده النسبي وبدايته الفعلية من نشأة الإخوان المسلمين كجماعة عام 1928على يد حسن البنا وحتى إفراج مبارك عنهم عقب استشهاد السادات بعدة أشهر ، تلك الفترة التي شكلت وجه مصر الحقيقي والتي شارك المصريون حكاما ومحكومين في بنائها للمرة الأولى في التاريخ ربما كانت الريادة لمحمد على الذي حاول الاستفادة من إمكانيات المصريين بدرجة أو بأخرى ، لكن قيام ثورة يوليو وهبت المصريين الحق في بناء مصر كما يريدون ، لذا فإن تعثرهم كان طبيعيا ، وأن المعارك التي دارت وتدور الآن هي نتاج طبيعي لتهميش دام أكثر من خمسة آلاف عام ، ولا شك أن أكبر ما يحتسب لناصر في الحقيقة هو تعظيم الحلم وتصديره لعالم المستضعفين ، لكن الواقع بآلامه ومعوقاته كان قادرا عبر الزمن السحيق وأد أي حلم مهما كان عظيما ، وكان السادات , الوجه الواقعي للحلم – كان يرى أن الواقع لن يتمكن من التحليق في السماء وأن التعايش مع الواقع قادر على تحقيق الكثير من المكاسب وإن كان غير قادر بالطبع على تحقيق كثير من الأحلام بالرغم من تناقض شخصيتي ناصر والسادات إلا أنهما واجها صراعا ضد قوى متعددة ، أهمها الجماعات الإسلامية ومراكز القوى وانتهى باستشهاد السادات على يد من حررهم من السجون لينته شهر عسل لم يكن قد بدأ بعد .

بحرفية استطاع الكاتب معتمدا على اللاتجانس عبر سرده تتباين أصواته الروائية عبر سردها الخاص ، راصدا رد الفعل محدا الصوت وتميزه , وأشد أشكال هذا اللاتجانس بدأ بين ممثلي الشعب والسلطة ، كما استخدم الكاتب ما يسمى " تكذيب التشخيص " – كما يقول – محمد نجيب التلاوي ، مستخدما المراجع والتواريخ وماورد بالجرائد ، والأسماء الحقيقية لكثير من التبئير المتعدد la recite a focalization inteme or multiple variable وفقا لمحمد نجيب التلاوي أيضا ،

كذلك كما قالت كاترين ســوان في مقالها " تعدد الأصــوات في ميرمار نجيب محفوظ " بوصــف مشابه حيث تختلف نظرة الشخصية للحدث وفقا لمعايير عدة تصل أحيانا إلى نفي الحدث بالكلية .

ينجح الكاتب في ألا يكون موجودا تماما ، وأن يختفي دور الراوي ، فكل الشــخصــيات تتكلم مســتخدمة " أناها " فلا تقرأ " هو " ولاتقرأ قال ، إنما " أنا " ، " قلت " ، " ذهبت " وهكذا ... وربما الذات الكاتبة تأبى أحيانا التجاهل ، فآثر الكاتب أن يصــدر تنويها في بداية الرواية معلنا عن نفســه وأنه " خالق " ما يحدث الآن ، وإن كان ذلك قد حدث خارج الرواية إلا أنه لم يكن مطلوبا على الإطلاق .

تظاهرات واغتيالات وتحديد إقامة وحرائق ومعتقلات وإعدامات وحروب واحتلال ونكســة وانتصار كبير وحيد ومعاهدة سلام ! .
امتدت الأصوات في خطوط طولية ، لا تقطعها خطوط عرضية إلا نادرا ، فالشخصية تحتل قطاعا طوليا كاملا ، تمارس فيه تجربتها تبدأ منذ تأسيس جماعة الإخوان ، إلى إطلالة سريعة على ثورة كالثورة العرابية ، حتى الإفراج عن المعتقلين عقب استشهاد السادات ، لا تقطعها خطوط عرضية ، مؤكدة على عناصر الصراع وأن المستقبل محسوم لإحدى القوى المتصارعة ومما لا شك فيه أن انفراد قوى ما بالحكم – مهما كانت قدراتها – يقود إلى كارثة كبرى وصــراع لا نهائي ، يتمثل ذلك في قول منصور فايق : - " المشروع الوطني المصري يواصل تقدمه والسلالة الإخوانية تواصل تمددها وانتشــارها ، فأيهما ياترى يمكن أن يكتب لـه النجاح ، وهل هذا أمل في أن يتحالف المشروعان " ؟ ص 31 .

كان الجميع يتربص بالجميع ، تربص الثوار بمحمد نجيب ، حتى أقالوه ولم يكتفوا بالإقالة ،بل حددوا إقامته للأبد ، وتربص ناصــر بالإخوان وتربصــوا به ، فجاء حادث المنشــية ذريعة للقبض على 700 منهم واعتقال 3000 وإعدام 6 من قادة الإخوان ، وسـعى السـادات للمصـالحة الوطنية بهدم المعتقلات والإفراج عن المعتقلين خاصــة التيار الإسـلامي لم يسـتطع تفهم التسـامح السـاداتي فاسـتباح كرامة السـادات وأسـرته وتحول كل الأفراد إلى سـياسـيين بارعين وعسـكريين مبرزين وخبراء اسـتراتيجيين لا يشـق لهم غبار ، ووطنيين مخلصـين ليكون السـادات وحده الغبي الأحمق الخائن والعميل ، فكان لابد من الانقلاب عليه فخرج صـالح سـرية وطلال الأنصـاري وجماعتهما للإطاحة بالسادات في عملية لا يمكن أن تتم حتي للقبض على لص من لصوص السيارات, فلم يكن هناك تكتيك ذكي للتخلص من السادات ،ولا فكر يليق بجماعة تسعي لحكم دولة كمصر , وتم القبض عليهم وإعدام صـالح سـرية والمؤبد لطلال الأنصـاري " ولم يكف السـادات ولم يغير أسـلوبه فكان يتناقش حتى في الأسعار ، السكر وزجاجة الزيت وهو عمل وكيل وزارة التموين على أقصى تقدير ، لكن القوى المترصة بالسادات أشعلت الأرض من تحت قدميه في انتفاضة شعبية جانحة كادت أن تتحول إلى ثورة حقيقية ، لكن السادات وئدها في مهدها ، وكانت المحصلة عشرات الشهداء وآلاف المعتقلين.

هنا فقد الســادات قدرته على المراوغة والدهاء وبادل " الشــعب وقواه المختلفة " ســبابا بســباب وتلاسن بتلاسن وقوة بقوة وعنف بعنف ,لقد كتب السادات نهايته بيديه ، فلا أحد يمكنه قهر الشعوب – حتى لو كان هوالأصــوب – بني نوح ســفينته وتحمل ســخريتهم ، وذبح يوحنا المعمدان وهاجر الرسول ، لم يحارب أحد منهم قومه ، ولم يعذبهم أبدا ، ولم يفرض عليهم معاهدة - ككامب ديفيد –، فكل يوم نشاهد عددا من القتلى من جنودنا على أرضـها ، كل ذلك ونحن في أحضـان معاهدة السلام ، التي تعد فكرة عبقرية عامة ، لكنها فاشلة أشد الفشل في تفاصيلها التي جعلتنا لقمة سائغة للعدو ! .

من حيث التجنيس بدت الرواية تقود حصانين أو يقودها حصانان الأصوات والوثائقية ، وللوثائقية دور البطولة بعد أن التزمت رواية الأصوات مسارها ، أعلن الحس الوثائقي عن نفسه عبر معطيات متعددة ، تتكرر أحداثها بشكل نمطي ، الاغتيالات واحدة الإعدامات والتواريخ واحدة
لكن اختلاف الرؤية هو معطى الرواية الصوتية .
يمكنك إن كنت مولعا بالتاريخ – تاريخ مصر المعاصر على وجه الخصوص – أن تقرأ درسا سلسا ومكثفا ,عبر ثمان وجهات نظر مختلفة ، علاوة على إلمامك بقراءة تحليلية للأحداث التي مر بها الوطن ومنها استشراف مستقبله والتعامل مع مستجداته .
اختفى الكاتب بل والراوي أيضا ، بدت كل شخصية مستقلة كأنها كتبت نفسها ، تتحدث عن نفسها في ثقة وزهو ، حسني هلال الذي امتدت رحلته ثلاثين عاما " 1942-1974" وعاصر فيها الحرب العالمية الثانية ، وحرب فلسطين وحروب أهلية في إيران والبلقان وسوريا ، حيث تغطي وجه منطقة الشرق الأوسط بالدم ، عمل مع عبد الناصر وساند السادات ، ولم يختلقا إلا نتيجة توقيع معاهدة السلام ، كما رفض العمل في الدول العربية أو اللجوء السياسي ، وكتب من مصر في بعض الصحف والمجلات العربية التي تعرف قدره ، لكن السادات اعتبر ما حدث من عواصف ضربت الشارع المصري هي من صنع كتاب وصحفيين من أمثاله ، وعندما احتفظ بشعرة معاوية مع السادات الذي منعه من الكتابة بعد أن عبر عن رأيه في انتفاضة 77 ، فهو لم يتفق مع الزعيم على أنها مؤامرة ناصرية وشيوعية ، وإنما انفجار سياسي واجتماعي واقتصادي .

تنتهي الرواية عود على بدء إلى حسني هلال مرة أخرى ، كأن الكاتب يقرر أن حسني هلال الصحفي هو البداية والختام ،فالصحافة هي الكلمة وفي البدء كانت , منه تبدأ الأشياء وإليه تنتهي رسالة مفادها أن المثقف وصاحب الفلم هو محور الأحداث ، تنتهي الرواية بحسني هلال يتجاذب أطراف الحديث مع زملاء السجن حول الأوضاع الراهنة واغتيال السادات وتصفية الحسابات مع تنظيم الجهاد ، وإعدام خمسة متورطين ، وأحكام مختلفة بحق 400 متهما ، ليتم الإفراج عن نزلاء طرة ومعتقلي سبتمبر بعد 3 أشهر تقريبا ، إلا أن فكرة الكاتب تبدو وقد تأزمت تماما ، عبر قراءة خاطئة لل " مثقف " حسني هلال – وهذا غريب فالكاتب ضمير الأمة وحسها – يرى أن عصر ما بعد السادات سيكون عصر الحرية والتطلع لحاضر مشرق يصحح أخطاء الماضي وأن الرئيس الجديد - لاحظ – ليس لديه ارتباطات داخلية أو خارجية ، ويستطيع أن يستند إلى إرادة شعبية حرة لمواجهة الضغوط من شتى الإتجاهات , ولديه رصيد ثمين يتمثل في الضربة الجوية ..!.
لم يكن ختامه مسك ، لم يحسن حسني هلال قراءة مشهد هذا الشبل من ذاك الأسد ، السادات أختيار عبد الناصر ربما ليعاقب زملاءه أعضاء مجلس الثورة ومبارك أختيار ساداتي بإمتياز ربما ليعاقبنا نحن ! .

هذا الختام المأزوم هو ما يمكن قراءته حقيقة ، أننا لا نملك الوعي الكافي لفهم الواقع السياسي رغم تعدد الرايات الكثيرة المرفوعة إخوان ، ناصريين ، يسار ، الأخطاء واحدة ,عدم الإدراك الصحيح للواقع ، وأكبر أسباب ذلك عدم براءة تلك القراءة وتحيزها الأعمى وعدم إعلاء راية الوطن نفسه " بمعنى أن ثقافتنا هي من الهشاشة والتطرف والانغلاق ، بحيث تحتاج إلى التفكيك ، بثوابتها وأنساقها وشيفراتها ومرجعياتها ، لإعادة الإنتاج والبناء في ما يخص مرجعيات المعنى ومصادر المصداقية أو المشروعية ، من القيم والنماذج أو المفاهيم والمعايير ,ولو كانت الثقافة غنية ، قوية فعالة ، راهنة ، لما كانت الأوضاع في العالم العربي بمثل هذا البؤس والتخلف كما يقول د. على حرب , البيان أكتوبر 2011 فالرايات الحزبية الضيقة تشي بأسقف شديدة الانخفاض والسذاجة وهو ما يحتاج إلى فتح حوار وطني غير محدود حول معنى الحزبية ، وأنها لا تعني أنا ومن بعدي الطوفان ! .

يتبنى بعض الأشياء التي كدرت صفو القراءة مثل صغر حجم الخط بشكل مسيئ وكثرة تكرار التواريخ ، وقراءتها بنفس الروح دون تمايز بين الشخوص " وحدة الأساليب تقريبا – قد يكون مقصودا – " وكذلك بعض المبالغات التي قد تكون بعيدة عن أرض الواقع ، كعلاقة طلعت منصور بسلوى الإخوانية فمناداتها بصديقتي لربما غير مألوف وغير واقعي قد يكون الأوقع " ياأختي " ,وهي تمسك بيدي وتقول بدلال وتزغد ., دعنا نتشفى في كامب ديفيد بتغيير سلمي لعزوبتنا " قد يكون ذلك أيضا سلوكا بعيدا عن سلوك الأخوات – في الجماعة – علاوة على عدم وجود إشارات بعدم مصداقية سلوى أو مجرد إدعائها " التأخون مثلا ولا يوجد بالسرد ما يشي بذلك ! .

كما يمكن رصد خطأ واحد في تحريف اسم الفقيه الدستوري يحيي كامل " إلى "يحيي بكر " ص 145 وربما لذلك علاقة بالذاكرة المرهقة لدى الكاتب أحيانا ، كما أن الكاتب ترك حرية التحاور دون حدود – متخذا شكلا مسرحيا بعض الأوقات قد ننسى عبره أننا نقرأ رواية وليس مسرحا ! .

وتبقى تساؤلات طازجة لربط حوادث الحاضر بالماضي عقب يناير حيث انسحاب الشرطة والانفلات الأمني والحرائق واستاد بورسعيد ، تماما كما حدث في أحداث الزاوية الحمراء ، وبناء كنيسة دون ترخيص ، أحداث الكشح وإطفيح ودهشور ، استشهاد خالد سعيد وسيد بلال وإعدام الشهيدين البقري وخميس ! .
استطاعت " حفنة من الأرذال " أن توثيق الحقبة ,حتى لو كان ذلك التوثيق مصحوبا بريموت خفي للكاتب ، لكن المؤكد أن المتلقي لديه حرية تقبل أو رفض كل ما أسميناه حقائق ، وتفنيده بشكل واع ، كما أنه لديه حق النقاش والمراجعة والقراءة من وجهة نظر مغايرة تماما للرواية وللنقد ذاته ! .

التلميح والاشارة والمسكوت عنه

فى كسر الحزن لمنير عتيبة

يتميز المبدع عن غيره بالتقاط أطراف الخيط ، التى يتمكن من خلالها إبداع حياة جديدة ، بل حيوات تتسم بالجدة والطرافة .

هكذا تتسم المجموعة القصصية لعتيبة ، بالعديد من المواصفات التى قد تتقاطع أو تتوازى فى بعض الاحيان ، إلا أنك لا تستطيع أن تنحى معظم هذه القصص جانبا لتنشغل بعمل آخر سوى الانتهاء من قراءتها ثم تنتشى بتامل جاد وببحث العلاقات بين الأشياء ثانية ، إن كنت قد فعلت ذلك من قبل ، وإن لم تكن فانك ستبدأ مرجلة من التأمل و المعايشه لم تكن قد عشتها من قبل .

تحدوك الدهشة فى قصة كالمطارد ، هذه البداية التقريرية الحاسمة , إنه هو ! , هذا الايجاد الاكتشاف , وجدتها , ثم نفى النسيان رغم مرور السنوات الخمس على عدم الرؤية ، ورغم عشرين عاما من المطاردة ، تلك المطاردة الثأرية التى قد لا تنتهى فقط بالتخلص من أحدهما
إنما من الاثنين معا على الأرجح , فكلاهما مطارَد و مطارِد!! توقفت الحياة لديهما , لا زوجة ولا ولد ,إنما الهروب والسفر واليأس فيقرر التواطؤ مع الخصم / الذات للإفلات ليتوحد القاتل القتيل فى جبةٍ واحدة !!
ننتقل إلى أبجد لغوص وهى القصة التى تعانى وتكابد مشكلات هذا الجيل جيل ألفين كما كانوا يسموننا - وإن كبرنا قليلا على هذه التسمية - قد سرق احلامنا الأفاق الصغير الذى تعلم فعل السرقة

البسـيط بحلم البسـطاء ثم يطور هجومه بسـرقة أجزاء الدراجة التى يسـتأجرها ثم يخون الأمانة ليسطو على ليلى التى لابد أن تكون إدانتها واجبة ربما قبل إدانته الخط المستقيم الذى برع اللص فى رسمه واستيعاب طوله كمهندس قدير ، علم كيف يصل غلى أشيائه وأهدافه المحددة سلفا , كرنبة , أجزاء دراجة أجرة سرقة ليلى نفسها , اختلاس الحلم الجميل .

كان المنهج منهجا واحدا للتعلم ، يبدأ من عم حسن زرع الكرنبة -بداية- لكن النهاية متعددة مفتوحة :-

(1) لص يملك كل شيء حتى الحلم
(2) مواطن صالح يفقد أبسط الأشياء

ربما ليس العيب في المناهج , العيب في بعض الجينات ,ولكننا لسنا أبرياء تماما , هذا مالاشك فيه . استطاع القاص أن يستخدم عدة رموز للسرد ، فليلى هذا الرمز التراثي الدال على العشق والهوى والفقد ، كان في موضعه العناوين المتعددة / المرحلية كانت ذات دلالات واقعية تؤكد الفكرة وتسهم في نمو الحدث حتى الوصول إلى الذروة .

وتطالعنا قصـة المقدس التي تبدأ بأحد المقالب الصبيانية التي تتكرر كثيرا ليستفيد صاحبها منها في كل مجريات حياته حتى تنقلب الآية لتصـبح تفكرا حقيقيا في المأسـاة الكبري حيث يحيا الشـعب الوحيد في العالم تحت نير الاحتلال بقرار رسمي!! عبد الملاك الذي أصبح في خريف العمر ، بعد أن عاش حياة طويلة عريضـة دون أن يأبه لشـيء ، يفاجئ الجميع برغبة صـادقة صـادقة – لمن يعرفونه – بانه ينتوي السفر إلى القدس لا ليقدس بل ليقاوم ، وأن هذا أفضل قرار سيأخذه في حياته ، ورغم عدم تصـديق ما يقوله عبد الملاك الذي عودنا على صـنع المقالب إلا أنه هذه المرة يصـدق فيما يقول .
لقد اسـتطاع عتيبة أن يجعلك تصـدق كل ما يقوم به عبد الملاك الذي ادعى أنه مات منذ فترة في قدرة على التشويق والإثارة من خلال توظيف المفردات اللغوية والجمل المكثفة في إحداث الحالة لا مجرد التعبير عنها !,أما رصـد الحالة الإجتماعية ، وما يمور في هذا المجتمع من توترات تحت دعاوي متعددة ، يرصـد القاص في " متطرف " الحالة في تركيز شـديد ، لكنه قال كل ما يريد ومعظم ما نريد أن نقول , فحينما حضـرت سيارة الشـرطة علمت أنني تجاوزت أقصـى الحدود . فالبطل عامل فني رفض في زمن المستثمر الخضوع والإذعان لصاحب العمل الأجنبي في تخفيض درجته من عامل فني إلى عامل عادي ، ولم يكتف بذلك فلقد حرض زملائه على التصدي للقرارات الجديدة فلم يكن نصـيبه سـوى الغياب الذي ربما يطول , في حين أن زميله أشـرف قد فهم قواعد اللعبة وعلم أن مرتبا مبتورا ودرجة أقل أفضـل من لاشـيء ، بل أسـلم من غياب غير محدد المدة والدرجة .

ثم ننتقل مع منير إلى " خدعة " ، لحظة الإشراق الصوفي المملوءة بالوجد ، ما بين التحلية والتخلية ، إلا أن الشـيطان رغم كيده الضـعيف ، يسـعى دائما لقتل لحظة الوصـول ، وينجح إلا أن هذه الاقصـوصـة هي تناص مع مثيلتها في الأثر الإسـلامي وربما تتماهى مع الأثر ذاته ، وكان على القاص أن يشـير في هوامشـه لذلك رغم معرفتي الجيدة بطغيان فكرة هذه الحكاية وسـلبها لوجداننا كأمثولة دينية تراثية .

تعتبر قصـة " مظاهرة " من زاوية ما ، مكملة لقصـة " المقدس " حيث تستدعي نشرة الأخبار بما تحتوي من صـور مؤلمة بعضـا من الحماس ، وإن كان هذا الحماس في حد ذاته لا يحيي الموتى لكن الابنة خلود – ببراءتها الطفولية – بهتافها الضئيل ضد شارون تحيي ما تبقى من جذور النخوة فتنبت زهرة فوق القبر ليحيا ولو مؤقتا , ليهتف معها وهذا أضعف الإيمان .

في حين شهرزاد المرتعدة أبدأ تحكي الحكايا لشهريار ، علها تثنيه عن جريمته المنتظرة في حقها لم تلحظ ، أن الديك قد صيف وأن شهريار يغط في نوم عميق وإن حكاياها لا يسمعها أحد ، وأن خوفها لا مبرر له , لكنها اعتادت الخوف في إسقاط واع على الواقع المعاش ، يؤصل القاص سرده ، حيث استلهم تيمه فلكلورية ليومئ إلى واقع لم يعد يحتمل أي إيماء ! .

حتى أن ابن المقفع فوجئ بعد قرار الشجاعة المفاجئ لمواجهة السلطان وأنه سيتكلم مهما كلفه الأمر أن رأسه مقطوع بالفعل وهي أزمة يعانيها الجميع , فالجميع مقطوع الرأس ربما دون أن يدري .

لكني أخشى من سوء فهم مغزى " الذبيح " التي يتناص القاص فيها معكوسا مع الموروث الديني حيث يتمرد الابن ليقتل الأخ المفضل لدى الأب ويستولى على الميراث واستبعاد السياق الديني يفضل هنا حتى لا تختلط الأوراق وإنما السعي إلى المعادل الموضوعي المجتمعي السائد ، في مجتمع رأسمالي مادي ، قد يسهم في كثير من الفهم ، كما يمكن التعامل بنفس المنطق مع قصة " لزماننا " التي تكمل المسكوت عنه في القصة السابقة فيوسف هنا مغاير ليوسف التراثي ، فهو يوسف حويط ، علم مسبق بما سيحدث ، فدبر لهم المكيدة ، وحول إخوته إلى جثث هامدة ، بل قتل الشاهد الوحيد الذئب ,بل تجاوز كل الخطوط الحمراء وفكر في الانتقام من الأب الذي سمح بالتواطؤ لكننا رغم علمنا بالقصة المختبئة خلف هذا الحدث – لا نستطيع أن نتعاطف مع هذا اليوسف القاتل ، فنحن لم نتعاطف مع أبينا قابيل لكن تعاطفنا الكلي مع هابيل – أبينا- الذي لم ينجبنا .

أما حلاج زماننا فمسك الختام ,حيث لم يبق في الجبة إلا الفراغ و الرؤية تشاؤمية ، أفرغ الحلاج من محتواه ، بعد أن لم يكن في الجبة غير الله , وبعد الحلول والاتحاد والقضاء على ثنائيات الله الإنسان ,الملاك / الشيطان ، الروح / الجسد , ليصبح الكل في واحد ,إلا أن جبة الحلاج عتيبة صارت خاوية لا تتسع لشيء سرد متمايز للقاص ، جمل مكثفة ، أفكار مضغوطة ، قدرة على الإثارة والتشويق ، استخدام الرمز دون غموض مقيت ، استلهام للتراث والفلكلور بشكل انتقائي دال ، قادر على نقل ما يستمتع به شخصيا إليك ، لتتوحد معه .

كما توحدت في العالم العجائبي من قبل في المجموعة السابقة مرج الكحل " ، القدرة على تنويع عالم السرد من قصة لأخرى ومن مجموعة للثانية ، روح التمرد أحيانا على التراثي والموروث والسائد ، لم تتعارض ذهنية الكتابة مع القدرة على الوصف والتخيل ، حتى الإبجرامات مثلت حالة ذهنية مشوقة حتى ولو لم تصنف كعمل قصصي بالضرورة ,هكذا تداهمك مجموعة " كسر الحزن " تداعب عقلك ومشاعرك ، فتتلمس فيها ذاتك المنهكة ,فتستعيد تيار وعيك ثانية ، إن كنت قد فقدته .

بشري أبو شرار تبدع الأمكنة عبر زيتونة شرقية

أنا أقدم رواياتي من عذاباتي ومن حالات أنهكت قواي , هذه هي الكاتبة الروائية بشري أبو شرار التي ولدت لعائلة مناضلة ضد الاحتلال الصهيوني الذي اغتال أخاها المناضل الثوري ماجد أبو شرار الذي كان يمثل حالة عشق قومي وعروبي , كان حالة وحده , لم يهادن يوما فكان علي

الاحتلال أن يتخلص منه , بتصفيته جسديا , لكنه نجح بامتياز بتخليد مقاومة ماجد أبو شرار في قلب ووجدان كل فلسطيني وعربي , واشعل انتفاضات أقضت مضجع كل مغتصب ,أذاقته الأرق والخوف والذعر الذي لا يبارحه ليل نهار , قدر العربي أن يموت مدافعا عن أرضه وعرضه , أن يموت رجلا حتي لا يعيش ذليلا , وقدر المغتصب في كل زمان ومكان أن يعيش لصا ذليلا خائفا رغم ما يبديه من صلابة وغطرسة , تشبعت بشري أبو شرار ابنة دورا , بنضال أخيها ماجد وثوريته , وكفاح والدها من قبل , وحكايات الأم التي كانت علي النقيض من والدها –علي المستوي الإيديولوجي – إن جاز التعبير , لكن بشري أبو شرار هي نتاج هذا التكامل لا أقول التضاد , غرس الأب فيها كل القيم , وغرست فيها أمها العناد ! وزكي روح المثابرة لاستعادة الأرض , فلبشري أكثر من ثأر معه , ثأر عام وثأر شخصي , ولابد أن تنتقم يوما ما , لكنها لم تؤجل ذلك , فهي تسهم في الانتصار علي العدو بالنقاط , لا بالضربة القاضية ,عندما تكتب رواية جديدة , فهي تستعيد بهاء مفتاح الدار الذي تحتفظ به لتعود يوما إلي بيتها في دورا أو باحتها في غزة , وإن لم تتمكن , فالأبناء والأحفاد ينشرون الخريطة كل مساء أمامهم , حتي لاتعثر أقدامهم ولا تضل لحظة يحين الرجوع .

تعيش بشري أبو شرار في الإسكندرية , لكن غزة تعيش فيها , ودورا تسكنها , تتذكر أغصان الزيتون , والسعتر , ورائحة البحر , وحكايا الجدات , وفساتين العرس الموشاة بخيوط النصر تشرق " شمس " في كل رواية وقصة , تنشر خيوطها الذهبيةفي كل مكان , تبعث الأمل وتحيي الصمود , وتكافئ كل شهيد وجريح , تعده بالخلود ترسل تحية إكبار إلي روح كل شهيد , آخرهم الشهيد زياد أبو عين , الذي لم يرض بمقعده الوثير علي أرائك السلطة الفلسطينية , فنزل بين الإخوة , والأصدقاء , يغرس الزيتون ,بذرة السلام فغدرته الأيدي الآثمة , بكعوب البنادق , والخنق بالحطة الفلسطينية , أمام كاميرات العالم " الحر " , وتتأخر سيارة الإسعاف , ليلفظ زياد أبو عين أنفاسه الأخيرة , متطهرا من آثام التخاذل , عساك تتقبله ربي شهيدا .

عندما تتلقي عملا لبشري أبو شرار قصة أو رواية أو حتي تحاورها , تلقي ثائرة بأسلوب مختلف قد لا يستسيغه كثيرون , وربما يشعرون بنعومة زائدة "مقاومة الصالونات "أو المقاومة الحريرية " التي لا تتعجل الانتصار ولا تتعجل القضاء المبرم علي العدو , ولا العودة إلي الأرض غدا فمثل هذه الحرب , لا تعتد بعنصر الوقت ,ولاتسعي للانتقام العاجل , لكنها تؤمن أنها ستنتصر " يوما ما " , هذا يقين !

بينها وعدوها قصفة زيتون - وليس بندقية كما بين درويش وريتا-تزرع بذرتها كل يوم , رغم ماتتعرض له من اقتلاع , تعاود غرسها ثانية ,وثالثة , وإلي الأبد.

ألا تستفز بشري ؟ ألا يثيرها مشاهد الدماء الفلسطينية التي تسيل كل يوم علي أيدي أعدائها ؟ أما آن الآوان لتنتفض , وتكتب قصة انفعالية يقوم البطل الفلسطيني المغوار بقتل عشرات الجنود الصهاينة ,أو يفجر نفسه في سكان مستوطنة " مغتصبة "؟ , تنفعل بشري , وتتفاعل , وتكتب , لقد استفزتها " شوشا " سنجر , الكاتب اليهودي , الذي يحاول اقناع العالم بأنه يكتب " حنينا " لمحبوبته وأرضه , وجذوره , ذلك الوطن المسلوب الذي يدعي أنه أرض آبائه وأجداده , فتستفز بشري لتكتب " حنين " , وتكتب " دورا " وكأن حنين , ودورا هما البطلتان الموازيتان أو المعارضتان لشوشا سنجر , تدحض بهما ادعاءات مغتصب كسنجر , حتي لو كان اغتصابا فكريا , فما علاقة هذا البولندي بأرض كنعان ؟

تهتم بشري بالتفاصيل الصغيرة , لا لتتسلي أو تسلي الآخرين , أو لذكر عادات تثير الدهشة أو الوقوف عند غرائبيتها , بل لأن التفاصيل الصغيرة هي الجذور , وهي الوطن , فلن تجد الاحتفال بطقس الزواج بهذه الكيفية إلا هنا , ولا ليلة الحنة بهذا الشكل إلا هنا , ولا هذه الرقصات ولا الأغاريد إلا بهذه الطريقة , إن توثيق العادات والتقاليد والأغاني والرقصات والطقوس هو أحد أكبر الأدلة التي نشهد عليها الأرض , وتشهد معنا أننا كنا هنا , ولم نزل , ولن نبرح , حتي لو سرقوا الأرض كلها , فالسماء معطرة بدعوات أطلقتها الجدات , والأفق مدوي بأغاريد تشييع الشهداء ,

ورائحة السعتر تملأ المشرقين , والنهر يشهد أول اغتراف منه , والبحر يعترف بخوضنا لجته , فأي وثائق وأي خرائط وأي مواثيق دولية أقوي من بصماتنا , وأنفاسنا وأصواتنا التي خلدها الوجود ؟
تحارب بشري عدوها بتكنيك التفاصيل الصغيرة –فسيفساء الحكي-لتكون الأغرودة معادلا موضوعيا للرصاصة , وتقاوم بقصفة زيتون " المغتصبات " بتجذرها العميق داخل الأرض الطيبة , وكأن زيتونتها " مذكرة دفاع "تقدمها المحامية بشري أبو شرار لمحكمة التحدي.
تري بشري أن المرأة عنوان القضية وأنه لا انتصار دون المرأة الفلسطينية , معمل تفريخ الرجال , فهي التي تلقن صغارها ثأر الزوج والأب والأخ وتعلق في رقبة الصغار مفاتيح دورهم السليبة فلا يكاد يسير الطفل , الشاب , الكهل دون أن يكون مفتاح بيته السليب في جيبه , ينتظر لحظة الحنين ليفتح به دار اغتصبت منذ عشرات السنوات , لم يرها , ولكنه يعرف كل شبر فيها ,ويحتفي في ذاكرته بشجن السنين.
من المفارقات, أن البطلة كانت تعيش في منزل استأجرته من يهودي , وربما تفكر في المغتصب اليهودي الذي يرتع في منزلها بفلسطين مجانا , فلقد سرقوا منها الوطن , ويؤجرون لها شقة لتكون فلسطين البلد الوحيد في هذا القرن الذي احتل بتوافق دولي , ورضاء كامل من قبل كل المنظمات التي تسيطر علي مقدرات العالم .
ستعود بشري أوحنين إلي دورا , إلي غزة , لتضرب المفتاح في باب بيتها العتيق , فتشم عبق سعتر مكنوز يشتاق لقياها , ولديها يقين , أنها ستجد ماجد أبو شرار حيا يرزق , يلتقيها بالأحضان والقبلات , دون أن تبدي دهشة , لتقول :- ها قد عدنا ياماجد
-ها قد عدنا يابشري
-ماذا فعلت ياماجد في الأربعين سنة الأخيرة
-أبدا , كنت أمنعهم من دخول منزلنا
-تمترست يا ماجد أربعين عاما خلف الباب ؟
-تمترست أربعين عاما يابشري!
- ألم يحاولوا ...
-حاولوا , لم يستطيعوا
-ألم يستخدموا ...
-استخدموا كل شئ
-وتصديت وحدك ؟
-كانوا جميعا معي , حتي أنت!
-وأنا في الإسكندرية ؟
-من قال أنك كنت في الإسكندرية؟
- سأصنع شايا بالمريمية
- اذهبي , سأظل خلف الباب
- أين أمي ياماجد؟
-تستريح قليلا , زرعت بعض الزيتون في البيدر الخلفي ,لاتزعجيها الآن
-هل عاد أبي من عمله؟
- ليس بعد , القضية صعبة , وتحتاج وقتا وجهدا
-سأنام بجوار والدتي
-نامي , بهدوء, كل معاناتنا ستزووووووووووول.
لا تهتم بشري بالمواصفات التقليدية للرواية , ولا تعتد بالرأي النقدي الجامد الذي يقف عند مواصفات مدرسية للكتابة , وإن كان عدم الاعتداد الكامل بمواضعات العمل كاملة قد لا يكون شيئا

محسوبا للكاتب , وقد يتفلت منه العمل إلي حكايا وحواديت , ربما تكون قادرة علي التسلية والإمتاع أو لا تكون , لكن لحسن الحظ أن خيطا ما يرتب عقد كتابات بشري يمنعه من أن ينفرط فالفكرة , والقضية يلعبان دور واسطة العقد التي تمنع انفراطه,لتنتظم التفاصيل الصغيرة ,عقدا يليق بجيد القضية , فليس كل كسر لتابو الكتابة مرحب به بل قد يكون إبداعا , فلغة الكتابة التي تضفي نكهة قوية عبر تفاصيل العمل قادرة عبر كمها تغيير الكيف , فهذا الزخم من التفاصيل المستخدمة يمنح العمل مذاقا خاصا , ويغير من كونه حكاية تفاصيل أو تفاصيل حكاية إلي خلق " روح " كيان جديد , يتضافر فيه القصصي والروائي والشعري , وربما المسرحي , لخلق حالة حنين , تدعي قصة أو تدعي رواية , تحقق عبرها الكاتبة تجذرا في أرض الحقيقة , يصعب علي العدو اقتلاعها , وليس مهما لهذه الدرجة تصنيف العمل , فهناك نص يصلح أن يكون " وثيقة " " بصمة " تعلن أن هذا الشعب كان ومازال وسيظل هنا , وانه لن يبرح أرضه أبدا .

تصنع بشري من كل ما يحيط بها بطولة , الأماكن الشخوص , الأشياء ,تخفي داخل التفاصيل الصغيرة حربا أبدية ضد غاصبي الأرض , ضد من يسعي لقهر إرادتها , تزرع التحدي في نفوس الصغار, وتمنحهم الأمل في غد و لم يكن ماضيه سيئا لأنها كانت تمهد لهم ذلك الماضي أطول فترة ممكنة ,كانت تحرثه , وتزرع البذور عل الأحفاد يوما يحصدون ثماره .

لاتكتب بشري عن المكان من منظور واقعي, فهي لاتريد غزة الآن , غزة الآن هي متاهة لاتعرفها بشري , هي تعرف غزة ذات الشوارع الأربعة , غزة القصور وليس الكتل الأسمنتية لذا فهي تحمل غزة الأولي , غزة البكر , وتترحل بها حيث أسفارها العديدة , تنقل للعالم رسالة سلام , وحرب باردة يمكن أن تشتعل في أي لحظة , لاستعادة كل ماسرق من عمر وحلم ودفء عائلي .

لا تضطر بشري أن تكتب علي أغلفة أعمالها " سيرة ذاتية ", لتدرك بنفسك دون أن يخامرك أي شك أن أبطالها يجسدون سيرتها الذاتية مابين الواقع والحلم , ماكان وماهو كائن , وما تصبو أن يكون , فحنين هي بشري وشمس هي بشري , حتي أنها تتماهي مع المكان لتكون " دورا " هي بشري أيضا , حتي الإيميل يقول ذلك , لذا عندما تقترب من كتاباتها , أنت لاتتعامل مع معطيات الرواية بتعريفاتها التقليدية , ولا أنت تقرأ كتابا في التاريخ , وليس كتابا في التراث الفلسطيني أيضا , بل هو كل ذلك , وهو غير ذلك في آن واحد .

العصافير ترفض موتي

رقص بهجت صميدة في قاع البحور !

في ديوانه الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة إقليم غرب ووسط الدلتا " العصافير ترفض موتي " للشاعر بهجت صميدة يهدي ديوانه إلى الكثيرين ممن أثروا روحه الشعرية الأصدقاء

عمرو الشيخ وسعيد عبد المقصود وراعية العصافير التي ترفض موته – زوجته – وإلى الأبناء "زياد وأنس وملك العصـــافير الصـــغيرة في ســـماء أحلامي " هذا هو العالم العريض لبهجت صـــميدة ، الذي يبدو أنه يتحرك في دائرة محدودة ، لكنه – رغم أهمية وحميمية هذه الدائرة – فهو لا يتعدى سوى منطلقه الذي يبدأ منه خطوته الأكثر رحابة إلى فضاء الوطن

لكن صدمة الواقع كانت أشد من كل التوقعات ، الشمس أغرتني / فتحت عيني كي أرى النور فاعمتني هكذا ، إغراء الواقع المخادع الذي خاتله وأغراه ببهجة الحلم ، فإذا به يجذبه إلى العمى بعد وعد بالضـــياء ، لكنه مقاتل من طراز مختلف ، لا يســـتســـلم ، علاوة على معرفته الدقيقة باسـلحة القتال وتكتيكاته ، فيقلل من كلامه ليكثر شـعره حفاظا على الوطن الذي لن يهزمه عدو سوى كثرة الكلام ، يقل كلامي / فيكثر شعري / فحين يزيد الألم يضيع الوطن ! .

لكنه يظل أسير هذه الحالة من التردد واللاوعي ,فلا شئ يبين ، لا شئ يتضح ، ويضيع الشاعر بين أكثر من وضعية ، بين الصواب والخطأ ، ألبس روحي / أخلع جسدي / ألبس جسدي أخلع روحي/ أخلع / أخلع / تشتعل نار / تطفئ كل مصابيح الحلم الخضراء ,يحبط الواقع روحه الصوفي الذي يقرر التخلي عن خرقة الجسد ليرتقي بالروح ، لكن الواقع الإشكالي يزداد تعقيدا ، فيخلع الروح متأقلما بشـــكل براجماتي مع مادية الواقع ، فيزداد واقعه ســـوءا ، فتنطفئ كل المصـــابيح عكس ما هو متوقع ، حين تضـــئ غرفة الناســك بنور ســرمدي ، بعيدا عن العلائق المادية ، لكن صدمة الواقع – نانية – تتحقق ، بالقضاء على كل حلم ، فينكشف الغطاء ولانهار ، ولا يجني سوى ليل سرمدي لا آخر له ! .

لكنه مقاتل عنيد ، لايستسلم ، عصافيره الشجية ، التي انتقاها جنودا تشد من أزره وتحارب معه إحدى أهم المعارك ، فهي عصـافير تقاوم ظلمة الليل البغيضـة ، تجابه كل أشباح وطيور الظلام ، العصـافير لا تمنح الظالمين الهوى / فاتخذ من عروقك نحو السماء سلما / النجوم على جانبيك تعد الطعام / تخبز – بالشمس –أشهى الفطائر .

يحلق بعيدا ، نحو السماء ، بعد سقوط كل الأقنعة ، فينكشـف الزيف ، بالرغم من كونه يتسـاءل إلا أنه في الحقيقة كان يقر واقعا مأســاويا زائفا ، ذبلت خلاله وعبره كل الوجوه ، بل اصـفرت فيه العقول والقلوب لتخرج العصـــافير طالبة أجوبة الأســـئلة ، وجوه أرى ؟؟ أم أرى أقنعة ؟! يغطي الدخان جميع الأماكن ، ويبقى اصـفرار القلوب / اصـفرار العقول / ويمضـي الجميع مع المرحلة .

وبالرغم من كون الشـــاعر مازال يناشـــدهم أن يفتحوا له باب الحروف للهجاء ، إلا أن الختام المبكر – هنا – يمضـي الجميع مع المرحلة ، وقد يعكس بعضـا من مفرداته ,التي يمكن للقارئ أن يتهجى حصار الورد ، وأن يعاني إجابة السؤال الكبير منذ كم ألف عام رأيتك .

****

بين الرمزي والفضائحي في جسد "ليليت"

نتعثر بين الحين والآخر في مصـــطلح "كتابة الجســـد " متأرجحين بين المســـتقر في أذهاننا تراثيا والتطور الدلالي له ,وما ينتجه الآن ولا شـك أن فلسـفة أو أيدويولجية ما – أكثر من كونها نظرية نقدية – تلعب الدور الرئيسي في الانحياز أو الرفض ، وليس بخاف أن كتابة الجسد ,قد عرفت عبر

التراث الأدبي العربي ، والذي تباين ما بين الرمزي والفضـــائحي ، مما أعطى الذرائع للمفهوم القيمي أن يتدخل ليمنع أو يسمح بالمرور .

على الرغم من كون الفروق في كثير من الأحيان لم تكن كبيرة ، ولأن مجتمعات أخرى وضـــعت المفهوم القيمي الخاص بها المتكئ على الحرية الفردية المطلقة غالبا ، فلم يعد النقاش حول هذه الإشكالية ، بل صار حول كيفية أدائها لدورها بشكل أكثر إبداعا ، فلمقولة الفيلسوف والناقد الفرنسي جيل دولوز Gilles Deleuze أن تمنحنا حق الجدال وفق مقدرتنا لفهم الدال حيث يكشـفه ,حينما يتحدث عن انشغاله بالجسد الأنثوي .

في ديوانه الفائز بجائزة اتحاد الكتاب يكتب الشاعر محمود عبد الصمد زكريا ديوانه " ليليت " هي الأنثى ، أنثاه الإسبرين ، في تشبيه جديد ، غير مقتف أثر ابن أبي ربيعة ولا محاكيا نزار ، لتتشكل قصائده عبر مستويين ، مستوى الرمز ومستوى الكشف ،
والشعر لو تعلمين هو الفضح
والفضح لو تعلمين
هو السر ، والسحر

يمارس وأنثاه المكاشفة عبر الجسد ، متجاوزا الكثير من تابوهات قد تمنع فضائحية البوح الذي لا يقوى على كتمانه ، بل يذهب أبعد من البوح إلى " الممارسة " ليمزج عسل الكشف ، بزبد التخفي ، متطهراً كقديس بتبرئه من أنثى وثنية آمنت باللات ، وكأنه لم يدعها ولم يغوها ، متدثرا بنبوة متخيلة ، أو مشتهاه .
هل قرر الشاعر البوح والممارسة قبل فعل الكتابة ؟ هل داهمته المرأة والقصيدة ، فاستعبدت لغته التي تداعت دون أن يتمكن من اســتيقافها ؟ يحدث هذا عبر صــفحات الديوان أحيانا ، لكنه يمنحنا مستوى آخر يشي بقدرة لحظية على التوقف ، وطرد الأنثى الأيروسية التشكل ، رافضا وجودها قادرا على اغتيالها مرات ومرات ، تلك التي دنست حبرته المطهرة .

أنثاه تشبه المخدر الذي إن تناوله توقف بعض من ضجيج وصداع ، فهي أنثى الأسبرين ، لكنها في مستوى آخر معبودة كاللات ، يمج تسلطها ويسعى لإزاحتها من المشهد الوثني العبثى ، وأنثى قروية ,تتوق لساحل المدينة علها تناجي البحر والنجمات المتعبات ، وثالثة بدوية تصحرت أحاسيسها مثل بئر معطلة .
قلت – الآن انتخب المباح من الخطيئة
سوف تلتصق الزواحف بالصقور
أعيد تشكيل الحياه لفتنة أولى ، وطقس بابلي
اللات تسقط في حبائل ساحرين
وتكتوي بالشعر
تخرج وردة أو بجعة أو حية تغوي
وتأتيها الملوك مسومات
هل سعى عبد الصمد إلى سرقة لواء جده مرتين ؟ راغبا في تصدر المشهد عبر كتابة عارية معلنا قدرة متوهمة وصراعا يتسلل عبره إلي دارة جلجل ؟

تواتيه تلك الوقفات القصيرة أو العتبات – المتمثلة في بعض القصائد القصيرة ، وذلك التشكيل الذي وسم الديوان بين هامش أول وهامش ثان ، و" كالوس " أول وكالوس ثان يشي بعتبة قيمية ، كانت قادرة على التوغل عبر روحه قتلا وطغيانا .

حاول الشاعر الابتعاد عن الوصف التقليدي للأنثى ,فمنحها ملامحا جديدة ,شاردا عن الأوصاف المعلبة ، فأنثاه " قهوية العينين " .

لم ينشغل بداية بالإيقاع ولا اللغة ، لكن غوايتهما قد استوليتا عليه في مواضع متعددة ، بعد أن كان قد قرر ألا يلتفت إليهما ,ففي "فضفضة سردية على قارعة العشق " مفتتح الديوان –
أيتها النبيلة ، يامحض صخرة استعارية اخترقتها ، أشعة شمسي الرمزية ، وعبث مطري الكهروكميائي .
إلى استيلاء الإيقاع عليه تماما ، حتى الوقوع في تداعي المعاني ، وطغيان التقفية
إذن سأعد مائدتي ، ومنفضة السجائر
كي أسوى الشعر في جو خصوصي
وأرنو للغرام العائلي
سأشحذ الذكرى
واستدعى استعارات مؤجلة
ولي ولع شقي
سأضيف بعض طقوس غانية
تداعب زوجها ، تعطيه كوثرها
وتدخله بليلك ليلها
هذا الغرام المهبلي.

لقد تمكنت في المستوى الفضائحي بعض الألفاظ التي ضلت مكانها على المستوى الشعري من التسلل إلى إفساد بهجة التلقي " ألتذ أو ألتظ " بما لحرف الظاء من وحشية النطق والتلقي ، أو هذا الوصف بأنه غرام مهبلي .

تباينت الرؤية ، وتعددت الأنثى ، وتداخل الذاتي مع الغيري في السرد ، واختلط الإثم بالبراءة والطهر ، لم ينس الشاعر ، بل هو لا ينسى ما للشاعر – الذكر من حق التسيد وتشيؤ الأنثى ليقهر طغيانها عبر قصائد الديوان ، ما بين الحب والمقت ، ما بين الحضور والغياب ، التقى الضد بن البراءة ونفسه في مرآة القصيدة فتصارعا ، فصرع كلاهما الآخرعلى مستوى الجسد الذي تنهكه قسوة المكاشفة وخجل الرمز ، لكن يظل الروح الصوفي ، الذي تمسك به الشاعر مقدما به بعض قصائده مثل منارة ممسى راهب متبتل ، تضئ سماء فذلكته الأولى في لحظة للمكاشفة والتساؤل –
أتلك نهاية قصتنا
التعانق في شهوة تتقطع
هذا الصداع وهذا القناع
ولكني سأبقيك في الروح حتى يغشيك نور
ديوان ليليت هي الأنثى للشاعر محمود عبد الصمد زكريا صادر عن دار الهدى للمطبوعات ,ليكون أحد محطاته التي آثرها لبوح شعري لا قيد عليه إلا قليلا.

الاعترافات
بديل قتل الأب في "ترانيم سكندرية "لمحمد الجمل

رحل عن دنيانا منذ أســابيع قليلة مضــت الكاتب القاص والروائي محمد الجمل ، تاركا خلفه عددا كبيرا من المؤلفات على مســتوى القصــة القصــيرة والرواية والنقد الادبي والكتابة الإذاعية والتليفزيونية .

محمد الجمل الضابط السابق بالقوات المسلحة الذي كافح كما كافح المصريون للتخلص من المحتل ، خاض عدة حروب ، ذاق مرارة نكسة 67 والعودة من رفح إلى الإسماعيلية سيرا على الأقدام يتجرع مرارتين :- مرارة الهزيمة واضــطراره لشــرب بوله حتى لا يموت عطشــا ، في ترانيم سكندرية " رواية سيرة " تعتبر هذه الرواية الجزء الثاني من مشروع سيرة ذاتية كان ينتوي الجمل كتابته ، يصل إلى أجزاء أربعة ، تمثل الجزء الأول في كتابه " نقوش في الذاكرة "بعنوان فرعي " أيام كفر الأكرم " والتي كان المكان فيها البطل الحقيقي ، لقد شــحب الجميع أمام عنفوان المكان " القرية / المدينة ", أما الجزء الثاني " ترانيم ســكندرية " اســتطاع الكاتب أن يجعل من شــخوص الرواية أبطالا حقيقيين ، أثروا في المكان وتأثروا به ، لكن بدا هذه المرة أن الشــخص الآخر هو البطل وأن صــاحب الســيرة كان يكثر من التعليق على ما حدث كرد فعل وليس فعلا مباغتا ، ربما كان يتنازع الجمل شخصيتان أو شعوران يتصارعان بين البوح والفضائحية والتحفظ والاحتفاظ بصورة براقة أمام الجميع ، فضلا عن صورته شخصيا ، فعندما بدأ في ذكر بعض المثالب التي شابت البعض ووصمته ، يعود إلى نوع من التوازن ، إما بتبرير الحدث أن بذكر حدث آخر مضاد ، يمحو الوصمة من ذهن المتلقي ، مما يدعو للتساؤل :- لماذا يكتب الكاتب سيرته الذاتية إذن؟

ما الهدف من كتابة طه حســين لمعاناته وطموحاته وإنجازاته ؟ أو ماهو المبرر لأن يفعل لويس عوض ذلك أيضــا؟ يمكن طرح التســاؤلات دون أن تتوقع إجابة محددة ليظل المعنى كامنا بين السطور ، أو في سرد الراوي ، كان كفر الأكرم بالفيوم 1935 هو ميلاد محمد الجمل ، سرعان ما انتقل إلى الإســكندرية ، حيث يعمل والده معلما يجوب المحافظات ، ليجد الجمل نفســه في ثقافة مغايرة وحضارة لم ير مثلها في الكفر ، الترعة شيء والكورنيش شيء آخر تماما ، الشوارع التي ترش وتغســل بالماء والخواجات المحتلون وهم يمارســون لعبة كرة القدم والتنزه على شــواطئ الإســكندرية ، والســكنى بحي راق ، حي محرم بك ، والمذياع المعلق بالمنزل والذي لا يمكن ان يصل إليه ,فهو قاصر على " السيد " الوالد ، لقد نال الجمل وأخوه عصام فاصلا من التوبيخ حيث وشــى بهم المذياع ، الذي ظل محتفظا بدرجة حرارته ، ليشــي للوالد بما فعله الأخوان ! ، كان مفتاح نور السلم شيئا سحريا جديدا .

في عروس المتوسط التقي الجمل عدة نساء هام بمعظمهن ، لم تغادر صورة ليلى التي تسكن أمامه في نفس العمارة مخيلته ، هام بغموضــها ، وانطوائها هي وزوجها ، متســائلا عن ســر هذه الأســرة تأتيه الإجابة أن الأب قد رأى ليلى وزوجها يخرجان من المعبد اليهودي بالنبي دانيال ، لم يتأثر الجمل بذلك ولم يشــكل بالنســبة له صــدمة أو حاجزا نفســيا ، لكن ليلى تختفي فجأة عقب العدوان الثلاثي وأخبرتهم أنها متجهة إلى فرنســا ، كان للجمل حظ أن يلتقي بمجدي فرج – أحد أخوة الفريد فرج – من سكان العمارة ، كما هام بإحدى بنات مدرسه ، وكان يتوه في عينيها وشعرها المسترسل شاردا عن شرح والدها ، وكم تمنى أن يرتبط بها .

تزوج الجمل في سن متأخرة نسبيا ، تزوجته سيدة لم تكن ترغب إطلاقا في الإرتباط بضابط يعمل في ظل النظام الشمولي كما اعترفت له ، سيدة منحته العبور الثاني ، لقد كانت الإسكندرية مدينتين في الحقيقة ، نقلته زوجته إلى إســكندرية الراقية ، وولجت به إلى عتبات إســكندرية الراقية ، في إحدي المرات ,أراد اصطحابها إلى كازينو الشاطبي فقالت :-ولما لا نذهب إلى نادي اليخت ؟ وهكذا فتحت لي آفاقا سكندرية لم يخطر ببالي يوما أن أقف على عتباتها ,فما بالي أقتحمه ، أثنت يوما على

نادي سبورتنج ، لكنها وجدت فيه عيبا يضايقها – المراهنات – ولما تعجب الجمل قائلا :- رغم أنك تعتقدين وتؤمنين بتعاليم الدين الإسـلامي ، لكن "الجوب" الخاص بك شـديد القصـر قالت :-أنت محق ، سأحرمك من رؤية ركبتي إلى الأبد !.

أبطال ترانيم سكندرية أبطال إشكاليون بإمتياز ، ساهم في كونهم كذلك هذه المصالحة الوهمية مع الواقع ، وفهم مغلوط للأنا ترتب عليه سـوء فهم هذا الواقع وللآخر ، لكن المدهش كونها شـخوص كانت قادرة على التعايش والإنجاز الملموس ، على الرغم من سـقوط بعضـها ضـحية المرض الجسدي ، والنفسي ، مصاب كثير منهم حقيقة بالفصام ، حتى أشرف محمد الجمل لم ينج من مرض الفصـام لفترة ما ، كانت ديكتاتورية الأب هي التي شـكلت النشـأة الأولى سـاهمت في اضـطرابات حياتية كبرى لديهم ، كانت أقدارهم أب مسـتبد ، أو زوج أكثر اسـتبدادا ، أو أم تميل كل الميل لأخ دون الآخر ، تمرد مكاني بالهجرة إلى الولايات المتحدة ، لكن دون هدف حقيقي سوى الهروب بكل المعضـلات والانطواء في مجتمع شديد الانفتاح ، وبطل يعود من سيناء مهزوما سيرا على الأقدام شـاربا بوله كي لا يموت عطشـا ! حتى مجدي فرج – مشـروع ناقد مبشـر – الأخ الأصـغر لألفريد فرج ، يفشـل في أن تجد كلماته النور ، فيكتفي بعمله في وزارة الثقافة ، وحينما يتزوج ويعاني انفتاح السداح مداح ، يلتقيه الجمل بعد غيبة سائقا للتاكسي الذي كان يستقله ، لتصل الدراما ذروتها بانتهاء حياة مجدي فرج إثر حادث بشع .

لم يستطع معظم شخوص ترانيم سكندرية تحقيق الذات كما حلموا لم يتزوج أحد منهم من أحب ولم يعمل أي منهم ما أراد ، لكن كثيرا منهم كان قادرا على التأقلم ، الرضـا القدري الممتزج ببعض الروحانيات حينا ، أو المخلوط بالانفلات واللاأبالية أحيانا لم ينطلق بطل السـيرة من عقاله إلا بعد التقاعد ، خلع حلته العسكرية ، ظنت الزوجة أنه قد عاد إلى حضن الأسرة ، سرعان ما أخذته حرفة الأدب ، ليهجر المنزل ثانية ، ولتعاني الأسـرة حرمانا جديدا ، كان الجمل يطمح لإكمال السـيرة ليتحدث عن رحلته مع الأدب وندوات نجب محفوظ بالإسـكندرية وقبلها لقاءات توفيق الحكيم ، وكيف فاز في إحدى المسـابقات لإكمال إحدى مسـرحيات توفيق الحكيم " النعيم العائم " ورضـي عنها الحكيم شـخصـيا ، وكيف كانت لقاءاته مع الحكيم ثم نجيب محفوظ بسـان استيفانو – حتى أنه اصدر كتابا تحت عنوان " نجيب محفوظ في ليالي سان استيفانو .

لغة رواية السيرة ترانيم سكندرية " لغة روائي ، قادر على الإمساك بكل الخيوط ، حتى لا تتناثر السيرة وسط ركام الحكايا ، أشفق الجمل على الجميع من إضفاء فضائحية البوح ، لم يجرؤ على المكاشفة كلويس عوض مثلا ، ولم يستطع الكتمان ، وشى بالجميع ، لكنه بدبلوماسية معهودة تكتنف شخصيته ، صالح الجميع بعد أن كشفهم ، قتل الأب روائيا ,ثم أحياه بذكر فضائله ، خاصة في النقلة الحضارية ، استخدم أسلوب الفلاش باك ، وكثف جملة الإعترافات حينا ، كان ينتوي كتابة الأجزاء الأربعة ، لكن القدر لم يمهله سوى كتابة منتصف السيرة ، التي ذكر أبرز ما أرقه وأشقاه وبعض ما أنجز وأغلى من أحب خاصة نجيب محفوظ .

****

وادي القمر ..
نوفيلا رشاد بلال وبطلها غير الإشكالي !

وادي القمر رواية ساندوتش ، تستطيع قراءتها وأنت في أية وسيلة مواصلات ، أو انتظارا لشيء ما ، وفي الوقت نفسـه ، قد تتفرغ لقراءتها لأنك لن تتركها إلا وقد اكتملت فصـولها ، فلم يعد هناك

داع للروايات الألفية التي كانت تقرأ في القرنين الثامن والتاسع عشر بجوار المدافئ في ليالي الشتاء القارص في أوروبا.

فوصف لحظة نهوض من الفراش كان يستغرق عشرات الصفحات ، وإذا كان " كليماخوس " من أكثر من ألفي عام ينتقد كتابة الملاحم ، لأنها لم تعد تلائم عصر السرعة – عصر العجلات الحربية – داعيا لكتابة الإيجراما ، فلا شك أن القصة القصيرة جدا أصبحت هي الأنسب لهذا العصر ، وإن كان لابد من كتابة رواية ، فلا يجب تعذيب القارئ عبر تفاصيل هو أكثر دراية بها ربما من الكاتب نفسه.

في رواية وادي القمر ، كان الكاتب رشاد بلال ساردا عليما حذرا في سرده ،يستخدم ضمير الغائب ، يتحدث عن الشـــخوص التي خلقها ، يوجهها إلى حيث يريد ويعرف ، وقد يدينها رغم توجيهه الشخصي لحركتها ، ربما كان نوعا من جلد الذات ، تأسيسا على أننا جميعا مذنبون ، وأننا شركاء فيما لحق بخسائر لهذا الوطن .
يكتب متحســـبا القارئ والناقد كثيرا ، لا يغامر بالحكي ، لديه أدواته الهندســـية وموازينه التي يســـتخدمها بدقة وســـيميترية ، كان كل ما ذكرناه في مخيلته ، ويتحســـس قلمه قبل أن يتقدم خطوة واحدة .

طابق الكاتب بين الصدق والصدق الفني ، عبر حكاية بطل ليس إشكاليا بالمفهوم النقدي
فإحباطاته شديدة الواقعية ، لا تصادف عقبات أو سقوطا دراميا حادا ، بل تجنيده وانتظاره للعمل بل حتى عمله نفسه ، يأتي بشكل طبيعي وواقعي ، دون مغامرات ، دون هضاب أو أودية ، معاناته معاناة يســـتوي فيها كل شـــباب هذه الحقبة ، حقبة ما بعد أكتوبر ، فالبطل إبراهيم ينتهي من التجنيد ويبحث عن عمل ، ويخطب هند قريبة أحد رؤســـائه بالعمل ، لكنه يتعلق بأخرى ، هي مي ، فيدور صراع بين رغبته في فسخ الخطوبة من هند ، والفوز بمي ، لكنه يتحسب غضبة رئيسه وخسارته لعمله وللشبكة والهدايا في آن .

الإشـكالية أن البطل يمارس الفعل بشـكل فيزيائي ، ليس هناك تحليل سـيكولوجي للدوافع ، بمعنى عدم وجود مبرر درامي مقنع لاختياراته ، الأبطال الثانويون يمارســـون هجرتهم للبلاد وللعمل بقرارات فردية ، يمثل كل منهم رمزا لوضـــعية تلك الأيام ، أيام الانفتاح ، هذا واقعي وواقعي جدا لكن لك أن تتســـاءل ، هل هناك إشـــكالية فنية ؟ ، لو كان للبطل اســـما آخر غير إبراهيم ؟ هل كان سيتغير شـيء لو كان المكان الذي تنوي الأسرة الانتقال إليه غير وادي القمر ؟ توجد ضـرورة فقط في ذهن الكاتب ، وهو ارتباط ذهني يخصـه هو ، بأن سيناء أرض القمر ، يربط تلك العلاقة الذهنية مع وادي القمر ، مع إختلاف طبيعة الارتباط اللهم إلا الجناس علي المســـتوى اللغوي, ونســـى أن أشمون مثلا بمحافظة المنوفية تعني لغويا أيضا أرض القمر ، ليكون مبرره الوحيد –مبرر البطل والأسرة التي ترغب في القضاء على أزمتها المالية ببيع المنزل وشراء قطعة أرض في وادي القمر .
حتى المعاناة غير مبررة ، ففي هذا الوقت كان يمكن شـــراء قطعة أرض بثمن أقل ، وفي مكان أفضل ، مما يثير التساؤل :-هل تحقق ما صبا إليه الكاتب من بطولة المكان ؟ بما أن عنوان الرواية " وادي القمر ؟ هل كان عنصـــر الزمن هو البطل الحقيقي وليس المكان أو الشـــخوص ؟ لقد كان المكان إشـكالية بسـيطة ، أما الزمن فكان زمنا مدنيا وزمنا عسـكريا يسـرد خنادق أكتوبر المجيد ليراوح هندسيا بين المكانين والزمنين على طريقة كتابة السوناتا لتتكرر عبر الرواية كلها دون أن يكملها إلى مما يوحي إلى القارئ الناقد أن الكاتب كتب نصـــا واحدا ثم أعاد تقطيعه ، عقب الإنتهاء منه وهي ملاحظة لبعض من قرأ الرواية ، وإن نفى الكاتب حدوث ذلك بالطبع .

وادي القمر هي رواية إبراهيم – الذي يعمل والده بالترسانة البحرية – الذي أنهى خدمته العسكرية باحثا عن عمل ، ليعمل في شركة باتا للأحذية التي تقع على الحدود بين الورديان والقباري ، لاحظ استخدامه كلمة الحدود والتي تتشكل في لاوعيه نتيجة خوض غمار حرب أكتوبر وما تركته من أثر عسكري حتى في لغته ، يراوح بين لغته العسكرية الجادة ولغة ما بعد السداح مداح والتي هجرت أسوأ ما فينا عقب المعاهدة ، المخبر الذي استقال ليعمل تاجر شنطة ومات محترقا في سيارته "الهبر كان في الظلام يظهر الآن في النور ، وبطريقة قانونية "، فيضحك محمود – هؤلاء من كان يقال عنهم أهل الثقة ، لقد غير الانفتاح أخلاقيات الشعب المصري ، بل قل ربما كان سلوكنا خافيا حتى علينا ، فحينما لاحت الفرصة ظهر معدننا الحقيقي ، يرتب للسفر والهجرة إلى أمريكا وزوج أختي استقال من الوظيفة ، وفتح مكتبا كمحام حر .

يدين الكاتب حقبة الانفتاح ,متسقاا في ذلك مع صديقه الكاتب الراحل محمد الجمل رؤية واحدة وإن اختلفت حدتها ، رأي السادات أن إسرائيل بمكرها تستحوذ على حماية أمريكا وفي أموالها وعلى دعمها في كل المجالات ولماذا نحن أيضا لا نفوز من أمريكا بكل ذلك وهذا سر اندفاعه إلى أحضان أمريكا .
لم يغفل الكاتب مفرادات كانت سائدة حتى الثمانيات ، الشرائط الغنائية – المسجلات – أغنية الأطلال لأم كلثوم التي توفيت العام الماضي ، كذلك لا يفوته إلا عيب الحكومات وتحذيرها للمواطنين ، وإدراك المواطن بأفعال الحكومات ,فيقول :- محمود بكر – أمس قرأت أن الحكومة لا تفكر في رفع أجرة المواصلات وترد فاطمة :- معنى هذا أنها سترفعها !.

تكنيك السرد لدي الكاتب اعتمد التقطيع , مشهد للحياه المدنية يليه, مشهد للحياة العسكرية ، دون إخلال بهذا النظام طوال الرواية ، كانت حكاية النزوح إلى وادي القمر هي البطل ، كل لبنات العمل تسعى للاستقرار هناك ، و مشاهد الحياة العسكرية وصولا إلى سيناء ، وكأنه – الكاتب – يسعى إلى أن يلتقي الطريقان في النهاية عند نقطة واحدة منتهاها "القمر", وهوبعد آخر قد يضاف إلي مفردات السرد لدي الكاتب .

كانت تفاصيل الحياه المدنية كثيرة ومتشعبة ، لكنها رتيبة ، غير مثيرة هي حين تلمح الحميمية في تفاصيل الحياه العسكرية أكثر بكثير ، ربما كان ذلك نتاج المعايشة الحقيقية ، قال لنا – الرائد مصطفى أبو طالب – اليوم هو اليوم الذي كنتم تستعجلونه في إلحاح ، اليوم هو أهم يوم في حياة الوطن وفي حياة كل منكم ، إما أن نسترد فيها كرامتنا وشرفنا ، وإما أن نضيع إلى الأبد .

كان لدى الكاتب مشهد شديد الخطورة ، ليس من حقي أن اقترح أن يكون هو بؤرة العمل الفني لكنه في رأيي كان ذروة الصراع وذروة التطور السردي حين يلتقي "محجوب موسى" الشاعر الثائر في انفاضة 77 وجها لوجه بالضابط الشاعر الذي جاء لفض التظاهرة ، محجوب موسى الثائر المحمول على الأكتاف ، الذي يؤلف هتافات الثورة ، سيد بيه ياسيد بيه ، كيلو اللحمة بقى بجنيه ، واللواء الشاعر "صالح حقي "، المنوط به فض التظاهرة ، ومحاولة الثوار الفتك بالضابط ، فيمنعهم الثائر محجوب من الفتك به ، هذه المواجهة رواية في حد ذاتها ، يمكن أن تكون ذروة وخلاصة ما انتجته المرحلة ، من فصام بين مقتضيات الواجب المهني ، والضمير الإنساني ، لو استثمر الكاتب هذا المشهد ، لتغير التلقي ولتم تعميق المعنى وفلسفته ، لكنه مر مرور الكرام ، دون ترجمة حقيقية لواقع مؤلم وزدوج .

على الرغم من القصر النسبي لرواية أو نوفلا وادي القمر ، إلا أن الكاتب قد تطرق لتفاصيل كثيرة ، كجزء من تكتيك السرد ومحاولة تبديد الحيرة التي وقعت فيها الأسرة وإشكالية الانتقال إلى سكن جديد ، كان ولابد من وادي القمر .

هذه هي الرواية الثانية للأديب رشاد بلال ، بعد روايته الأولي "كله تمام يافندم "، استفاد الكاتب من ملاحظات النقاد والكتاب ، فتخلص من ترهل الرواية الأولى ، ليقدم لنا وجبة خفيفة ، حول حقبة لم ولن ينقطع الحديث عنها ، معاناة اليوم هي الحصـاد المر لغرسـها ، ربما اسـتوعب رشـاد بلال درس الكتابة ، ولم يتطرق لتفاصـيل قتلت سـردا ، لكن لم أقتنع برؤية الأبطال لحتمية النزوح إلى وادي القمر ، كمعادل موضـوعي لسـيناء أرض القمر فأفراد العائلة لم يكونوا يريدون حل أزمة السكن ليس أكثر كما أن البطل على المستوى المدني لم يكن على مستواه كبطل عسكري ، -وهذا غريب , خاصـة أن الكاتب لم يلتحق بالخدمة العسكرية قط-حتى أن الإهداء كان لعبد العاطي صـائد الدبابات ، على الرغم من عدم التعرض لبطولاته داخل النص ، وكان الغلاف مزدانا بعبارة كأنها عنوان فرعي " أكتوبر 40 عاما " , ربما يمكننا أن نقول أن ماسمعه الكاتب وما تخيله عن أكتوبر , كان أكثر مصداقية من الواقع الذي يحياه ساعة بساعة.

واقع أكثر سحرية
في قريتنا تصنع أسطورة

عن الهيئة العامة لقصور الثقافة صدرت المجموعة القصصية " قريتنا تصنع أسطورة " للقاص محمود أبو راجح ، وهي المجموعة الأولى له ، تتناول المجموعة الأجواء السحرية لقرية القاص ، حيث بلتقط التفاصيل الصغيرة لتلك القرية ، ليضفر منها أسطورة تبدو مبهرة ، وكأنه يعايشها للمرة الأولى ، يحيلك عنوان المجموعة بداية إلى حدث ضخم وكبير كالثورة ، ثورة يناير العظيمة ، لكنه يهتم بفسيفساء الشارع التي يمكنها صنع واقع سحري أكثر من واقع الثورات ذاتها .
في إحدى قصص المجموعة – قصة الخوف – وهي القصة الأولى – يختار أداة التعريف – أل ليحدد في عنوان منطقي جامع مانع حس الرعب الذي ينتاب البطل ، فخوفه واضح ومحدد فالبطل يعاني مشكلة عدم الإنجاب ، وفي مثل هذه القرية ، لا يكف الأقارب والأغراب عن التساؤل ليل نهار ، في العمل ، عقب الصلاه ، لحظات السمر ، في حين أنه في بحث دائم عن مخرج وعن إجابة مقنعة ، لكن القرية ذات الطبيعة المستوية المكشوفة التي لا تخفي على أهلها أي خافية ، يتساءلون ، وهم يعلمون الجواب مسبقا ، لكن السؤال أو التساؤل يكون للتسلية أو التشفي أو كسر العين ، أو لحمد الله على أنه أعطاهم ولم يمنعهم ، وعافاهم مما ابتلى به غيرهم ، يجتهد في البحث عن مخرج.

لكن الطبيب يغلق كل أبواب الأمل في وجهة مذكرا إياه بالذكر الحكيم " يجعل من يشاء عقيما " تسعى زوجته بالأثر إلى قارئة الطالع ، للبحث عن حل مبتكر ، هناك تشابه بينه وأحد الغرباء ، نعم لقد أحاط به أهل القرية قديما ، ظنوه الغريب ، فالخوف والرعب كانا سبب عدم الإنجاب ، لجأ إلى أسطرة مأساته عله يجد مخرجا ، أما في قصة تالية مثل " رهانات خاسرة " فهي تمثل النصف الثاني للقصة أو الوجه المقابل .

هذه المرة المرأة هي العاقر ، وتلجأ إلى اختيار زوجة ثانية لزوجها ، عله يستمتع بالولد , أن يسير رافعا رأسه وسط أقرانه وأهله ، أعدت نفسها لتكون صاحبة للزوجة الجديدة ، وأما للمولود الجديد ، أعدت الملابس ، ورتبتها كمعادل موضوعي للقصة ، كانت تربي مجموعة من الكتاكيت واختارت كتكوتا أعجبها ، كانت تميل إليه أكثر ، رأت فيه ابنها القادم ، حتى ولو لم يكن من رحمها ,هيأت كل الأجواء ليأتي المولود الجديد ، لكن كل ما فعلته يتحول إلى النقيض ، يراها الجميع عدوة وساحرة ، وحاقدة ، يتهمها الجميع بأبشع الاتهامات ، لتخسر رهانها ، في قص مشوق سهل وبسيط .

أما في قصته " قصة لم تكتمل " فيمكنك قراءة اسكتش أو مشهد أو ربما قصة لم تكتمل بالفعل ، يصور القاص شخصية بهلول القرية وبشكل تقليدي ، يذكرك بقناوي باب الحديد أو هراس ويصدر عن البهلول الكثير من الآراء والحكم المتزنة ، لكن القاص لم يتعمق سيكولوجية هذا البهلول ، فقدمه بشكل مظهري خارجي ، لم يحفر داخل القارئ ما أراده ، وفي إحدى قصصه " قانون مقارن " يمكنك التعرف على أن الكاتب دارس للقانون بلا شك ، فمصطلحاته مستمدة من مفردات الدرس الحقوقي بامتياز.

نجد البطل المتحقق الذي تلقى تعليما عاليا وصار أستاذا في القانون المقارن وفلسفة القانون ، درس لمبروزو ونظرته حول سمات المجرمين ، بجلس البطل الآن على حافة الموت في انتظار لحظة النهاية ، لكن هل يستطيع الموت بعيدا عن الجذور ومسقط الرأس ؟ كيف والنخيل السامق لا يعرش ولا يتجذر أساسا إلا في أرضه ، ومهما أبعد عن أرضه, لابد أن يعود ، يقدم القاص اللمسات الإنسانية وهي ما يتبقى في النهاية من حصاد العمر وفي إحدى قصصه ، تلحظ المفارقة أو الفجوة بين الأجيال "Generation gap" حوارا بين الجد والحفيد .

يرفض فيه الجد أن يصبح الحفيد صيادا أو فلاحا بل يريده أستاذا مثل الأستاذ أحمد فيرد الحفيد لقد كنت تقول عنه أنه" أهبل" فكيف تريد أن أكون مثله ؟ ليختصـــر الجد رغبته في أن يكون حفيده مثل الأستاذ في كونه يرتدي نظارة ، ويتجاهل من يحدثه . عبر ست عشرة قصة ,اصطحبنا القاص إلى قريته مارا بنا عبر أجوائها الســـحرية ، والتي تشـــي مفرداتها بالتفرد ، مســـتغلا الكثير من المفردات الفلكلورية والأمثال والأســاطير ، صــانعا بعضــا من الدهشــة والتأمل للقارئ ، ذلك الذي عايش الجو الأسطوري للقرية أو للمدني الذي لم تطأ قدمه القرية إلا قليلا .

آمال الشاذلي
تنبذ ملامحها وتدق على أبواب السكون

قالت والعين شاردة ، تبحث لها عن مستقر ، مابال طعامنا صار مرا وشرابنا صار مرا ؟

هكذا تفتتح آمال الشـــاذلي مقاطعها عابرة النوعية التي تضـــمنها إصـــدارها " طرقات على أبواب الســـكون " تطارحنا أشـــجانها إحباطا ، وأملا ، حبا وكرها ، في مســـامرة لا ينقصـــها الوضـــوح والمكاشفة ، يتربص بها ولد تتعدد صفاته ، سادي حينا ، وساذج أحيانا ، مستضعف أخرى
عابث ماجن ، يترصـدها جلادا وضـحية في آن ,قامعا حريتها متصـديا لانعتاقها ، فخورا بمسـامرة الموتى قالت :- ألم يحن الوقت لدفن الموتى ؟
قال :- دعيهم فهم يسامرون صمتي وسكوتي ، مجرب , يستمتع باللعب فوق الأنقاض ، يناوئ كل حالة نمو وانعتاق وتحليق ، أبدو كطائر رشيق يدور حلو نفسه في دائرة لا نهائية .
ملايين المرات يتساءل من يراه ، ما بال هذا الطائر يعزف عن التحليق ؟
لكنها لا تكف عن البحث ولا يتسـرب لنفسـها اليأس ، فهي تصـر على إيجاد طائر التفاؤل : - أبحث عن طائر ، يأمر بالحياة في أعماقي كي تستيقظ .
طائر يبعث الآمال من مرقدها
ينفح في شراييني هواء نقيا
طائر ، ينقر جلدي ... فتتفصد الدماء الفاسدة
طائر يحطم القيود ، فتنطلق أحلامي من عقالها
تتحرر الخطوة من أصـفادها ، وتفلت ضـحكتي من سـجالها .... لكن الولد المبتغي ، الأمل المرجو هو نار لا يحتملها ,يلجها فيذيبها ، وتذيبه فيزدهرالفناء ...كان من نار وكانت من ثلج .
كلما دنا أحدهما من الآخر ,دبت الحياة في الفناء ، بل هو فارس الأحلام السادي الذي يستمتع بالهدم ويتلذذ بحلول الزلازل ، وتسـعده الرياح عندما تقتلع الأشـجار من جذورها ، بنبرات هادئة ، قال إنه الزلزال ، قفز الولد فرحا ، فما أجمل اللعب فوق الأنقاض ، مرق الولد مهلا يبشرهما لاقتلاع الريح لآخر شـجرة صـبار ، تميزت المقاطع بالتدفق والتلقائية والقبض على لحظات شـعرية وبعضـا من السـرد لتكون مقاطع عبر نوعية ، تأخذ من الومضـة والقصـة القصـيرة وقصـيدة النثر والمشـهد المسرحي ، حث يسود الحوار بعض المقاطع:-
قال وقالت : كما ســـعي النص للارتكاز على عتبات يعود إليها بعد عنائه ، لائذا بها مثل :- "لم يطرف لـه جفن " ، التي تكررت في أكثر من مقطع ، تتجـذر تجربـة المـد والجزر بين الأمنيـة والإحباط ، البحث عن باب للخروج ، قد يكون بابا ، مجازيا أو عالما ســـحريا بلوريا ، فهل ابتعث من أجلي مرآة جديدة؟
تعددت المفردات وتكرر بعضـــها عتبة لغوية آخرى مثل الولد ، الرجل ، الكلب ، الصـــبار ، النهر الزورق ، بما تحمل كل هذه المفردات من دلالات ، دلالات لغوية تراثية ومكتسبة ، فالولد – فضـلا عن المعنى والدلالة ,خاصـــة التراثية والمجتمعية ، أشـــهرها ما يمثله من أمنية ورغبة في حضـــور المخلص ، فالقصـــائد والغنائيات حول الرغبة في مجئ ولد مخلص ، منقذ ، كما يتغنى أولاد البلد للرجل الحق بأنه "ولد ".

لا تسـتكين ذاكرة الأنثى المحيطة التي خاب رجاؤها في الرجل ، الذي لم يسـتطع أن يكون"الولد " المخلص الذي تتكئ عليه ، بل لا تجده سوى السادي أو المأزوم أو المتصـابي ، فتلجا إلى عالم الحلم فتبدو في تعقد الحالة الشـعورية التي تصـل ذروتها بإسـتخدام التصـوير دالا فاعلا دون قيود ، بل يمكن القول إنها الحالة اللاشعورية للتصوير ، فهذه الصـورة الممتدة دون حدود قد تكون استثنائية صورة فرويدية الملامح ، تمثل عرضا لسيكولوجية الكتابة ها هنا .

النزيف يحيلني إلى روح مصلوبة على مشجب صدأ ,تلتف حول قوائمه أفاع تلعق دمي وترضـعني قهرا وقسرا سمها الزعاف ، أتلقفه!, سرعان ما تهبط بسرعة فائقة ، إلى واقع ملتبس في شبه إفاقة من إغماءة طويلة .

مثلي لا تريد أن تفتعل معاركها معه لئلا تنشغل به عن خصمها ، لتهبط أرض الواقع فاقدة الأمل في الحلم النبيل ، ولم أعد أتطلع إلى مركز سفيرة "النوايا "الحسنة
.طرقات على باب السكون لآمال الشاذلي " عُرس مطبوع " سعت عبره لبث مواجدها في دفقات عبر نوعية ، غير مكترثة بالتصنيف الفني للعمل ، لكنه بوح أدبي يرصد واقعا - برغم خصوصيته - إلا أنه يعبر عن كثيرين يجدون أنفسهم داخله ، بقلم رشيق لا أريد إفساد بهجته برصد بعض الأخطاء اللغوية أو ذلك الغلاف القاتم الذي لا يكاد يبين اسم العمل أو المؤلف عليه ، لكن التنويه عن بعض مثالب العمل ، قد تحث من يهمه الأمر على تجنب تكرار هذه الهنات في أعمال قادمة رغبة في الأكمل والأفضل دائما .

ليالي دبي شاي أخضر

رؤية للوطن عبرتغريبة السيد حافظ في بلاد الوجع

علي صوت فيروز الشجي كنت أقرأ ليالي دبي الجزء الثاني شاي أخضر ,لم أكن قد عمدت إلي ذلك ,لكنه جاء بشكل عفوي ,فلم اختر ما فعله الريسيفربشكل تلقائي ,أن أجد انسياب أغاني فيروز عبر إذاعة لم أكن سعيت إليها ,وكأنها مكافأة القراءة والكتابة عن هذه الرواية التي لن تكتب عنها إن كنت تقصد أن تتعامل كناقد محترف يبحث عن منهجية أو مصطلح أو كقارئ يسعي للتسلية وتزجية وقت الفراغ ,ولن تكون كذلك إن كنت كاتبا في بداية الطريق, تريد أن تتعرف علي كيفية كتابة الرواية فلن تكون رواية ليالي دبي شيئا من هذا القبيل ولن يمنحك كاتبها شيئا من ذلك أيضا فهي حالة مغايرة لكتابات سابقة ,ليس علي سبيل المدح ولا حتي علي سبيل الانتقاد , إنها حالة مغايرة من الكتابة تتداخل فيها كل أنواع الكتابة,بل كل أنواع الفنون علاوة علي استخدام العديد من الوسائط الإعلامية.

لم يكن الكاتب يسعي لكتابة رواية بالشكل التقليدي ولم يكن أي منا في ذاكرته ,حينما هم بالبدء في مشروعه الطموح بعيدا عن المسرح فنه الأول

كل هذه الشخوص التي منحا الخلود عبر حبسها في صفحاته ليمنحها الحرية ,ذلك الخالق الذي يمارس ديكتاتورية الخلق فيمنح ويمنع ويحيي ويميت ذكري شخوصه الذين صنعهم علي عينه وكأنه يعيد صياغة العالم عبر نصوصه المتصلة المنفصلة , فهو يعيد ترتيب الأحداث والماضي كما كان يريده لا كما حدث مهما كانت أمانته في السرد التسجيلي , فرؤيتك للشخوص وللأحداث لاتعني أن هؤلاء هم الشخوص بالفعل أو أن هذه هي الأحداث كما كانت تماما فالذاتية تشخصن الاشياء لاشك في ذلك الا انك بالرغم من كل ذلك لايمكنك ان ترفض هذه الشخصنة , فهذا الكاتب الرائي, لا يقول إلا الحقيقة عبر رواية كان يجب ألا تكون حقيقية .

جاء إهداء الرواية إلي شخصيات كثيرة شاعرة وكاتبة , صحفيين وفنانين محليين وعرب وعالمين و أهدي كتابه إلي خليفة الوقيان وسيف المري , وعواطف البدر , ولا يبدأ قبل أن يهمس في أذننا همسته الأولي عن تقرير الأمم المتحدة عن القراءة في الوطن العربي , فنصيب المواطن العربي دقائق ست في حين يكون نصيب المواطن الأمريكي مائتي ساعة , ثم يعلو صوته فجأة من الهمس إلي الصياح واللعن للنقاد العرب الفاسدين وكتاب التاريخ المزورين, ولا يستثني أحدا من فئات الشعب , فالكل باطل , هذا الشعب الذي يتغني بحضارة سبعة آلاف عام , شعب اكتشف الحجارة فبني بها أول سجن في التاريخ ,وأول من قنن للدعارة, وكان أمنحوتب الثالث أول من اخترع رشوة العسكر , واخترع الفراعنة التوريث , كان حور محب أول انقلابي في التاريخ قتل اخناتون وتحالف مع الكهنة , ونفرتيتي , ثم أعاد رمسيس الأول نظام التوريث ثانية .

حين تتصدي لقراءة نقدية لمثل هذا العمل تسعي للبحث عن عتبات أو مفاتيح العمل , من أين البدء , وكيف الولوج إلي داخل النص , وماهي الشخصية المحورية , هل الحاكم بأمر الله , هل هو كاظم هل هو علي بن أبي طالب , هل نحن القراء الأبطال الحقيقيون للعمل, ربما يكون الكاتب هو الشخصية الرئيسة والمحورية فهو الحاكم بأمر الله وهو عبد الناصر وهوكاظم وهو الجميع .

يقول كاظم " السيد حافظ "" في بلادي غربة بحجم الأرض والسماء , غابت الضحكات والناس مهمومة ...تري , متي نفرح ياحبيبتي ...سهر كانت تراقب العصفور المتعافي , ذلك المعادل الموضوعي للبطل .

يخرج من همسته إلي تنهيدته , حيث الدقائق الست نصيب الفرد من القراءة , إلي تخاذل شيعة علي بن أبي طالب عن نصرته, إلي صوت فيروز السماوي ع هدير البوسطة , تنتقل من الهمس إلي التنهيد مباشرة دون أي مقدمات إلي استراحة بديلة للموت أو الانتحار أو الجنون , صوت عبد الحليم إن كنت حبيبي , أخرجني من هذا اليم

الحكاية الثالثة , هي شخصيات في سيرة و مسيرة ابن حافظ –وهم كثير- عبد اللطيف الأشمر صحفي لبناني , شخصية نادرة الوجود كما وصفت , فاطمة يوسف العلي , كاتبة وباحثة كويتية ,وغيرهما الكثير

تتعدد طرائق السرد في هذه السيرة وتتعدد الاقتباسات والإحالات أغنية , قصيدة , ق.ق.ج مقال صفحة فيس بوك , آية قرآنية , حديث شريف , آية من الكتاب المقدس , برنامج تليفزيوني راصدا الثابت والمتحول في الشخصية المصرية خاصة , فمصر التي اكتشفت الحجر " ثابت " بنت أقبح المباني " المتحول " وإذا كان أدونيس كتب الثابت والمتحول وفقا لرؤيته الخاصة الذاتية , فإن السيد حافظ كتبها من وجهة نظر عامة , يمكن أن نتحلق حولها جميعا , دون أن نختلف معه كثيرا اللهم إلا في بعض التفاصيل أحيانا .
يستخدم الكاتب تكنيكاته مصرحا بها حينا , مثلا يقول " فلاش باك " أو بما يشي بسيناريو مكتوب "نهار خارجي " ولايتركنا نستنتج ذلك , فهو يريد أن يكون كل شئ محددا وفقا لإرادته هو , لايريد أن يترك للقارئ ثغرة يغلق من خلالها أو يخلق نهاية ما أو تصور ما لأي حدث , فهو يمنح القارئ كل شئ حتي لا يساء التأويل.
لايمثل التاريخ للكاتب مجرد حكاية أو حدوتة للتسلية , ولا موعظة وعبرة , ولا نوعا من التأسي بالصالحين , لكنه كتبه ليلعن صانعيه وكاتبيه , وللغافلين من المحدثين , وليثبت أن الماضي لم يتغير , وأن التاريخ يعيد نفسه , بغباء صانعيه وديكتاتوريتهم حكاما ومحكومين , أغلبية ومعارضة , سبعة آلاف عام لم يتغير شئ , التوريث والعسكرة والتأليه والاتضاع , لم يتغير شئ كما كنت أقول في كل لقاء تليفزيوني عقب ثورة يناير لم يتغير شئ, إن لم يؤله الحاكم نفسه , آلهه الكهنة, إن لم يفعلوا ألههم عامة الشعب , هناك متبرعون دوما لفعل ذلك , هم مخلوقون لهذا العمل ,إن لم يجدوا إلاها صنعوه , وإن لم يجدوا ظالما , توجوا منهم ظالما ليمارس دوره , ويملأ هذا المقعد الشاغر ,وإلا كيف يتصور هؤلاء الدنيا دون ظلم و دون دماء
هناك هؤلاء أصحاب الحلول الوسطي الذين يحبون أن يرضي عنهم الجميع , قد يكونوا شخصيات دمثة ومبدعة , لكنها تريد المحبة والسلام وقبلات الجميع
لكن البطل أو الكاتب يميل إلي المتمردين إلي الثوار , يميل إلي عصمت داوستاشي ذي الرؤي الممزوجة بالاحتجاج الاجتماعي , ليلي أحمد التمرد الدائم , ضد هؤلاء المنبطحين , المواطن الذي قال للديكتاتور :- مولاي :- أنا كلبك , وقال آخر لأمنحوتب منذ سبعة آلاف عام :-أنا الأرض التي تطؤها قدمك , والمقعد الذي تجلس عليه , والمسند الذي تضع عليه قدميك , ولم يتورع أحدهم في عهد ناصر أن يقول له :- أنت إله", وكيف لحاكم ألا يصدق الرعية الطيبة التي تتطوع لتأليهه ومنحه مميزات خاصة , ليست بالطبع فيه , لكنه الإيهام والانبطاح يصنع من أضعف الضعفاء طاغية في لمح البصر
صافيني مرة , وجافيني مرة , سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون , لاتحسد , هذا الاشتباك المتعمد بين المقدس والعادي يطرح بوضوح وعمق رؤية الكاتب لمفهوم الحياة أنها كل متكامل وأن الفصل بين الأشياء من صنع البشر كصنع الحدود بين الدول ,ماهي إلا أوهام في مخيلة هؤلاء لا أكثر , علاوة علي تحقيق مصالح فئة ضئيلة , تسيطر علي الثروة ليعيش أكثر من تسعين بالمائة من سكان هذا العالم عبيدا لفئة قليلة غير منتجة و لكنها تتحكم في ثروة العالم وإدارته , حتي أن دعاءموسي عليه السلام علي المصريين كان :- ربنا اطمس علي أموالهم , واشدد علي قلوبهم , فلا يؤمنوا حتي يروا العذاب الأليم.

الرواية والمسرح والكتابة عبر النوعية
يميل أي كاتب إلي الحنين إلي ما ارتضاه من أشكال أدبية, فلا ينسي هنا الكاتب الشكل المسرحي كأحد أشكال الكتابة داخل الرواية السيرة :-

-العزيز :-أين الحاكم بأمر الله؟
-الحاكم :- نعم يا أبي
-العزيز :-تعالي كي أقبلك

-الحاكم :-مازلت مريضا يا أبي؟
العزيز :- نعم
-الحاكم :- متي ستشفي يا أبي؟
العزيز :- حينما يريد الله.
فاللغة الشعرية ستغلب الشاعر حين يكتب قصة أو رواية , والسارد لن يقاوم سرده حين يلجأ للشعر.
التناسخ الذي يحل بالرواية , ينتج شخوصا تحمل نفس السمات , والاستنساخ الذي يمنحنا نفس الشخوص سهر التي تأسر قلب كاظم , هي شهرزاد هي ليلي , والحاكم بالله يحل في جسد كل حاكم جاء من بعده , كما حل في جسده الكثير من حكام كثيرين ,
حتي الثورات المجهضة ,كأنها استنساخ لثورات الماضي و لايتعلم صانعوها من حوادث التاريخ ولا حكاياه , الجميع يمارس نفس الغباء"أنا رحت ميدان التحرير وجدت مائة ثائر من مؤسسي الثورة في 25 ناير وألف ألفين من أولاد مبارك وعشرين ألف بلطجي والفيين من بائعي البطاطا والشاي هي دي مصر العبيطة .
لم يكن الهامش إلا رواية موازية للمتن ,فذكر شخوص وأحداث ونصوص ومحادثات هاتفية في هامش النص هو نوع من النص الموازي الذي يمكن نقله أو استبداله بالمتن ليقوم بنفس العمل ويؤدي نفس الأداء , فقصة قصيرة جدا لكاتب تستغرق سطرا واحدا , لم تهمش بما تعنيه الكلمه بل همشت للادخار, واستخدامها داخل السرد , وإبرازها عند الضرورة , وقد تستخدم في جزء تال , كمتن صريح , يهمش كتابة أخري
شخوص الوطن تشبهه بل في الواقع هي الوطن , فالذين باعوا القضية الفلسطينية , هم قادرون علي بيع القيم والمبادئ , وإلا كيف تعاني من بعض الفلسطينيين الذين كنت تنتظر أن يكونوا لحمة واحدة في وطن ثالث , تعيشان فيه كلاكما غربة مؤقتة ؟ في حين يجد الكاتب الاحتضان ممن لم يكن يتوقع منهم ذلك ,فيذكر مآثرهم وأفضالهم , كل مادار بينه وبينهم علي كافة المستويات , والأصعدة , العمل , الحب و السياسة .
في سرد ممتع وشاق , وعسير حيث عمق الرؤية , وسبر أغوار وطن عبر آلاف الأعوام, وشخوص ثرية متنوعة ,وقدرة علي التحدث بلهجة شامية ,والتمادي باستعراض المعرفة بها وعبر مسيرة البطل فتحي رضوان الذي يدهش الآخر بقدرته علي الإبصار كزرقاء اليمامة , فهو العراف والبصار والرائي يقول :- أمك ليست الحكومة , وأبوك ليس رئيس الدولة , أنت نكرة مثل ملايين البشر علي هذه الأرض,هي دي مصر ياعاطف , مصر التناقض المستحيل , والكذب الذي يشبه الصدق , والصدق الذي يشبه الكذب , مصر التي لاتعرف فيها اليقين والحق الذي يشبه الباطل , والباطل الذي يشبه الحق
أو عبر الحوار بين فتحي وهند
-اتجوزت يافتحي؟
-تقريبا ..كتبت الكتاب
-أنا مسافر بره مصر
-أحسن الفترة دي مش بتاعتك يافتحي , دي مرحلة الحرامية .
لا نحتاج سوي أن نقرا الحوار السابق أو مقولة كاظم :- هل يمكن للمرء أن يتقدم للأمام وقدماه حافيتان , وبلا سروال ورأسه خاوية ؟ أو عبر تساؤلات الهامش :- هي الشوارع ساكنة ولا موت ؟أو حتي عبر ق.ق.ج تكاد لاتبين بأحد الهوامش لأمين دراوشة :- ريق...تنشر الشمس ريقها تهرع الخفافيش بالاختباء , وينطفئ الظلام وكذلك التعليق علي حصول أحد الكتاب علي جائزة ساويرس , إلا أنه يعلن أنه لم يتقدم لها , وأن رئيس الهيئة العامة للكتاب هو الذي قدم له!
يتبقي أن نتساءل , كيف تتلقي جماليات مثل هذا النوع من الكتابات ؟ وكيف تتلقي ذلك الانسياب الزمني وعدم وضع حدود فاصلة بين الأزمنة المختلفة؟

رغم أن الرواية تبوح بكل شئ وتمنحك نفسها طواعية , تظل هناك أسرار , ينبغي علي المتلقي الحرص الشديد عند التعامل مع السرد الذي يبدو مباشرا , يبدو أنه يقول , في حين أنه مازال يخفي أكثر مما يبوح

"نغدا تأكل التفاح"

إشكالية الحكي00 عند عبد الفتاح مرسي

حدد الروائي عبد الفتاح مرسي هدفه من رواية "نغدا تأكل التفاح" والتي نزعم أنه في كل رواياته كانت واضحة الأهداف لكل قارئ ، وتبدو أكثر وضوحا لمعايشية صاحب هذا القلم، فقد اقترب الروائي في العامين الماضيين، بصورة مكثفة ، حتى صارنا يوما "واحدا" دون أن يكون كلينا سويا ، و ذلك مثار تساؤل وربما احتجاج !

والأكثر إثارة ودهشة هو أن كلينا مختلفان على عدة مستويات وأصعدة، أو على الأقل نجد أنفسنا مختلفان تحت لافتات العناوين الكبيرة ، اختلافا جذريا إلا أننا نمارس نفس التفاصيل !!

لذا أجدني أميل في المنحي القرائي إلى خلود المؤلف ، وإلى الأبد، فلا نص دون مؤلف ولا رؤية دون قارئ ولا حياة دون ناقد!

والاقتراب من العالم الروائي وفضائه لدي عبد الفتاح مرسي دون شخصنه هذا العالم، ودون التماهي مع الروائي ذاته، دون معايشة عالمه ومخالطته أو معاناة حكاياه وسيرته الذاتية، سوف يفقدك الكثير من المتعة ، وسوف تجعلك تفتقد العمق وربما تساءلت عن أشياء كثيرة لن تجد لها إجابات ليظل المعني في "بطن الشاعر" ولن تقع عليه أبدا !

إن عالم عبد الفتاح مرسي الروائي هو عالم خاص، لا حياة إلا هو ، رغم أن مئات الآلاف بل ربما الملايين يحيونه كل يوم ، إلا أنه مثل طفل صغير تدهشه معظم الأشياء البسيطة، فيحياها عالما سحريا غريبا مدهشة ، يلعب لعبة الكهان والسحرة ، حتى تخال من سحرة أن حباله تسعي!ولا يمكنك أن تتوقف عن الدهشة إلا بعد أن تنتهي تماما من التفاعل الحتمي مع العمل وتطالبه بالمزيد لتبدأ لعبة جديدة ودهشة جديدة لتجد !

دهشة المألوف

في عوالم ورائية أخري يتفنن الروائي في خلق أجواء سحرية غامضة داهشة أو يلجا البعض لأجواء الرعب والإثارة أو يلعب البعض على أوتار الجنس ، أو حتى الغريب، وغير المألوف، لتحيا الأجواء السحرية الداهشة أو الصادمة ليكون الروائي – في نظرك- مبدعا عبقريا، إلا أن عبد الفتاح مرسي يدهشك بالمألوف ومن خلاله وكأنه" سيمولوجيت" يعرف كيف يتسلل إلى ذاتك ويجبرك على أن تشعر اللحظة التي عاشها ، كما عاشها هو تماما ، حية، طازجة، ساخنة ، حتى لو كانت قبلة خاطفة في لحظة نزق ، فهو قادر على جعلك أنت وليس هو قادرا على استعادتها صوتا وصورة كأنها الآن00

وتأتي "نغدا تأكل التفاح: لتتوج رحلة روائية طويلة سبقها العديد من الروايات ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، "على حافة النهار" ،"الدحديرة" ، و"المحسوس والماموس"، "تلطيمة ابن خليل" ، و"البندقداري" ، و"مذاق النهار " وغيرها، والملاحظ أن الروائي، يجيد بداية انتقاء العناوين التي يضعها لرواياته بشكل شعري ، يجعلك قد تنسي الكثير إلا عناوينه ! فنجدها رنانة مشعة ، لا تخطؤها الذاكرة، "عبد الله والمدينة"، "للبحر حالات"، "مذاق النهار" ،"والمقطوع والموصول"، وكأنه يعلم تماما مداخل قارئه ، وما يريد ويفجؤنا الروائي برواية تم نشرها حديثا هي رواية "نغدا تأكل التفاح" عن مطبوعات الهيئة العامة للكتاب تكاد تكون سيره ذاتية للكاتب 0

عندما سافر للعمل في العراق، وعاش التجربة بقضها وقضيضها، كرجل ناضج في ذلك الوقت قد حدد أهدافه ببراعة في الحياة ، كما في الرواية، لتتماهي الرواية مع الحياة لا لتتناص معها ، إن عبد الفتاح مرسي قادر على منح حياته"واقعية سحرية" من الطراز الأول لا لأنها كذلك ولكن لأنه يستطيع أن يجعلها كذلك، هذا الحكاء السكندري ، الذي لا يمل ذكر كل التفاصيل الصغيرة وتضخيمها بمجهر خاص به ، ليجعلك تشعر وتحس بكل شاردة وواردة، وكيف تعامل معها وأحياها من الموات أو على الأقل أيقظها من سباتها!

سافر الروائي "البطل" إلى العراق للعمل في معمل الألبسة النسائية كخبير حاسب ليجد نفسه بين عشرات النساء العاملات، وقد كان المعمل في مدينة السليمانية "الكردية" التي أوصى بالعمل بها مديره العراقي ليكون مندوبا عراقيا لدي الأكراد ، الذين يكنون للمصريين معزة خاصة

حيث أن عبد الناصر وقف معهم ضد عبد الكريم قاسم ، خاصة وأن الأكراد ممنوحين حكما ذاتيا 0

ومدينة السليمانية مدينة صغيرة ، تقع في أحضان إيران الملالي ، كما أنها تضع رأسها في "زاخو" التركية ، على مبعدة ثمانين كيلو مترا ، حيث الكهوف المحيطة كالأسوار ، التي يمارس داخلها الأكراد تحقيق أحلامهم الشخصية مصبوغة بالصيغة القومية لكن هذه الحال جعلت الروائي يظن أن آلة الزمن قد عادت به إلى الوراء أربعمائة سنة !! كان البطل بذكائه وفهلوته المصرية ، قادر على أن يتعايش في هذا المناخ بل كان قادرا على تحقيق كافة المكاسب المادية والمعنوية وكان محظوظا في الحب والعمل معا !

فلقد استولي على قلوب الكثير من فاتنات العمل ، لكن واحدة استطاعت قتله حبا ، هي الفتاة الكردية نغدا واستطاعت أن توقعه في شباكها دون أي جهد ، فالحقيقة أن "صلاح" لديه الاستعداد للوقوع في هذا الشرك الحلو لممارسة علاقة ما ولو في أضيق الحدود لتزجية الوقت ولملأ المساحة التي تفصله بين زوجته في حي سيدي بشر والسليمانية ، ولاشك أنها مساحة واسعة وكبيرة بكل المقاييس وربما تحتاج أكثر من "نغدا" ولقد حاولت الكثيرات ، إلا أن الرجل الشرقي إذا ما استولت عليه امرأة زهد في الكثيرات ، بل يعيش إلا لها وبها !

البنت "نغدا" الكردية ، وقفت أمامي تأكل التفاحة الحمراء ولا يهتم جسمها الفائر في البلوز الحرير الخفيف بالبرد الزمهرير والثلج المتساقط خارج نافذة المكتب الدافئ ، اعتادت أن تحييني كل صباح بالزهور وهي تأتي مع صافي وبكيزة" 0

بل أن نغدا لا تترك "كاكا صلاح" أي السيد صلاح ، يهيم شوقا ، ويحيا مونولوجا داخليا من العشق والهيام ، لكنها تريحه من كل وصلات التأوهات العربية ، وانتظار ما لايجئ ، فتصارحه وهي ملتصقة بجسده في المقعد المجاور في سيارة العمل "كاكا صلاح" أنا أحب المصرين00 أي شئ مصري 00 أنا أحببت المدرس المصري الذي كان في المدرسة الثانوية00 هل تفهم00؟!

حتى أن بنات المعمل قد تنازلن عن "كاكا صلاح" لنغدا 00 ليصيح ممنوع من الاقتراب أو التصوير 00

لعبة الحدود الجغرافية والسياسية والتاريخ

لا ينسي الحكاء عبد الفتاح مرسي بأنه دارس أكاديمي للتاريخ وانه سياسي بدرجة ناصري مع مرتبة الشرف ، رغم أنه لا يفتأ يذكر أخطاء وخطايا الزعيم و تأخذه العزة بالإثم ، فيتذكر متفقاً معي على عبقرية الشهيد السادات الذي خذلته الأزمنة والأمكنة ، ولم تعترف به السنون حتى كانت مكافأته الوحيدة بعدة رصاصات – كأشرف ما يكون، يسقط يوم عرسه – ولا ينسي البطل الروائي العهد الذي نحياه ليصف مبارك بالرجل العاقل الذي وعي عقلية ، بل جنون العالم ذي القطب الواحد الذي لم تحياه البشرية منذ الخليقة !!

يلعن "كاكا صلاح" الحدود الجغرافية والتأشيرات ويرى أنها حرمتنا نحن العرب من التعرف على النصف الثاني ولا أقول الآخر ، اللعنة على من خططوا وأقاموا الحدود في الوطن العربي اللعنة على من رسخوها وأضفوا عليها القداسة التي تنم عن الجهل بأحلام البسطاء !

تلك الحدود التي جعلتنا جزرا منعزلة تحت دعاوي وهمية مصطنعة ، جعلتنا لا نعر حتى أسماء المدن العربية فضلاً عن زيارتها، حتى عزي البعض الفضل للحروب التي عرفتنا أسماء مدن وقري عربية ولاشك أن رام الله ، جنين ، طول كرم ، صيدا ، الضاحية الجنوبية ، وكركوك ما كنا سنبالي بمعرفتها لولا دبابات ومروحيات قوات الاحتلال!!

ولا ينسي البطل أن يضع في الكدر صورة الزعيم الشهيد الراحل (صدام) ، وقد كتبت الرواية وطبعت قبل الإعدام ، وهو يتجول بنفسه في القرى والبيوت الصغيرة والبحث في أحوال الرعية وتفقدها ويقرر المبالغ المطلوبة للفقراء وإن تساءل البطل عن مدي جدية هذه الجولات 00

ويصحبك البطل معه في مغامراته الدنجوانية الجريئة تارة والحذرة تارة أخرى ، لكننا نكتشف أخلاقية "كاكا صلاح" حينما تصر نغدا على تعريفه بزوجها ، الذي كان شديد الشبه بها حتى أنه نفي وجود قرابة بينه وبين نغدا حينما سأله البطل 00 فالبطل صلاح يقرر قطع علاقته بنغدا ، لقد تحولت مشاعره وسلوكياته – نحو نغدا ، بعد (العيش والملح) اللذين تناولهما مع زوجها ذي الملامح الوسيمة البريئة ، خاصة أن الزوج جاء بنفسه إلى سيارته واصطحبه إلى المنزل لتناول وجبة الإفطار على مائدة رمضان الكريم !!

فصارت نغدا فخر الدين صديقتي التي لا يجب أن أطمع منها في أكثر من الصداقة ، ثم أقصي بداخلي حيواني منهاراً لعله أصيب بالضربة القاضية ، نغدا في الأيام التالية ، كانت تتعامل معي بنفس اندفاعها، وحيويتها، لكني أنا من الداخل ، كنت أستقبل هذه الاندفاع وتلك الحيوية دون تفسيرات جنسية ، أضعها في موضعها اللائق في مكان أكثر من نزواتي الخفية" !

ويتعرض البطل للمأساة الحقيقية ، هذه الحرب الشرسة التي حُشد لها الجميع بين القوتين الإقليميتين – العراق وإيران - وتبرير كل جانب لاشتعالها بل واستمرارها حتى أنهكت الدول العراقية واستنزفت الجبهة الإيرانية فكانت حرباً تمهيدية لسقوط النظام العراقي وإفقار العراق العربي لنشاهد ما نشاهده من جحيم يحيا فيه إخواننا الآن ، يعاني صلاح الشوق لزوجته ، خاصة أن ابنه بالثانوية العامة – شابه آباه- وخطف قبلة من جارته اللعوب ، فعلمت الأم بالمصيبة فخشيت على الولد من الانحراف علاوة على إهمال المذاكرة استغل صلاح خطاب أخيه الذي يقطر دما ، وارتدي القناع المصري الرومانسي والواقعي معاً ، ليقنع رئيسه في المعمل بإجازة قصيرة لإصلاح ما أفسده الدهر حتى لا ينحرف إبنه ، فوافق رئيسه مع منحه مكافأة وسريان الراتب 00

كان صلاح بعد مرور أربعة عشر شهرا في العراق قضاها بين بغداد والسليمانية ، قد اشتاق للعودة إلى مصر ، رغم رفاهيته الواضحة وعيشه الرغد الذي يجسده عليه العراقيون أنفسهم ، ألا أن رغبته في الخروج من أجواء نغدا الساحرة والترقية إلى مدير عام بشركته بالإسكندرية والنوستالجيا المصرية للوطن 00 حدي بصلاح أن يعود إلى سيدي بشر 00 وفي ذاكرته عبق بغداد وذكريات آكلة التفاح 00 نغدا00

اللغة والسرد في نغدا تأكل التفاح

يظلم الناقد هذه الرواية ، إذا قرأها قراءة تقليدية ، فلا شك أنه سيتسائل عن بعض العناصر غير المتاحة ليست في هذه الرواية على وجه التحديد ، بل في روايات سابقة كثيرة ، حيث أن الحكي هو سيد الموقف والإلمام بتفاصيل مبعثرة ، تتجاوز أحيانا ، وتضاد أحيانا أخري ، حتى أن التنامي

الدرامي قد لا يصـــل إلى ذروته في معظم الروايات إلا أن منهجا آخر يمكن اتباعه عند قراءة هذه الروايات والتصـــدي لها ، وأن رؤي نقدية يمكن اســـتنتاجها من القراءة بشـــكل يغادر ما ألفناه ، وربما – بعد حين- نسـتطيع تقيد مثل هذه الروايات تتميز لغة هذه الرواية بلغة شـفيفة ناضـجة ، كانت العامية الفجة أن تندر ، عكس سابقتها ، ساد الوصف الشاعري والرومانسي نضجت الرؤي السـياسـية بشـكل غير مسـبوق لدي الروائي فاسـتطاع أن يقرأ الواقع قراءة واقعية مؤسـسـة على استقرار واعي للتاريخ ،كانت الموضوعية سيدة الموقف استطاع قراءة واستشراف المستقبل حتى ولو لم يصـــرح بذلك ، وإذا كانت هذه الرواية تقف على كتف ما لا يقل عن خمســـة عشـــر رواية ســـابقة ، إلا أنها بداية حقيقية لرواية لافتة وهامة ليس بالإســـكندرية ومصـــر فقط بل في الوطن العربي دون ضجيج

الإقامة في سركي الوارد

أنموذجا لواقعية سحرية انفرد بها محمد حافظ رجب

بالرغم من كون القصة القصيرة فنا غربيا صرفا , إلا أنه من الممكن أن يدعي كل شعب أن لديه تاريخا حافلا من فن القصة القصيرة , فحكايات الأمهات لأبنائهن قبل النوم , والقصص الديني وكتاب مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة , ووضع الأمثلة والحكم علي ألسنة الحيوانات , هو ضرب من القص المبدع , والمحمل بالخيال الرائع , والكثير من التكنيكات الأدبية التي ربما يعتبرها البعض اكتشافا جديدا , أو دربا من دروب الاكتشاف النقدي الحديث, وهو ما يؤكد أن الإنسان القديم كان مبدعا كبيرا , وربما كان "الأب الحقيقي لكل إبداع " , لكن تظل إشكالية واحدة ,ألا وهي التأصيل " , فلا يمكن الاعتداد بأدب ما أو فن أو علم ما دون تأصيل مسبق أو لا حق , فلا يمكن أن نقول أن العالم القديم عرف فن القصة القصيرة كما عرف الشعر والمسرح, لأنه ببساطة لم " يقعد " لهذا الفن في أي مرحلة سابقة علي الإطلاق .
فلم يشر أفلاطون أو أرسطو –من قريب أو بعيد- إلي ما يسمي بالقصة القصيرة short story, كما أشار إلي أو الشعر poetryالمسرحية Play

ولا ينفي ذلك أن تاريخ القصة القصيرة ضارب في الأعماق , فالمقامات العربية , والقصة الشعرية التي نجدها عبر التاريخ العربي وفي المعلقات والتي تروي قصص الحروب والصراعات بين القبائل وقصص الحب والعشق , هي جزء من التاريخ القديم للقصة القصيرة , حتي الحكم والأمثال والنكات , هي أحد مصادر القص , والذي تطور علي أيدي كتاب , " قرروا " أن يكتبوا فنا يسمي بالقصة القصيرة.

كانت ألف ليلة وليلة وحادثة الإسراء والمعراج أحد أهم إلهامات الأدباء والفنانين , لا علي مستوي العالم العربي فقط , ولكن علي مستوي العالم ككل , فكتب أبو العلاء المعري " رسالة الغفران " الذي تلقفها " دانتي " ليكتب " الكوميديا الإلهية" , مستفيدا من رحلة الإسراء والمعراج , ورسالة أبي العلاء , كما كانت كليلة ودمنة , وحكايات جحا ذات تأثير شديد علي الأدب الغربي بصفة عامة , حتي أن " دون كيخوت" , لثيربانتث " , لا يمكن أن تكون بعيدة عن الروح العربي , ونوادر جحا الذي أشرق فنه في كل مكان , ولم يترك شاردة ولا واردة من ألوان الكوميديا , حتي السوداء إلا وقد صاغها في حكاياه التي تمنحك العبرة , والضحك والتأسي في آن .
كما استفاد الغرب من حكايا شهرزاد , وقصص الحب بين قيس وليلي وعنترة وعبلة وغيرهما وكانت الأندلس – يوما ما – قبلة الأوربيين , وكان شعر ومعلقات عنترة وامرئ القيس , تمثل ما يمثله شعر وسوناتا شكسبير الآن , وكان من لايعرف أولا يحفظ شيئا من الأشعار العربية كان لايعد مثقفا
وضع " تشيكوف " -الملقب بأبي القصة القصيرة -, أسس هذا الفن الذي مازلنا نسير علي درب كتاباته حتي الآن, كذلك جي موباسا الملقب أيضا بأبي القصة القصيرة , والذي كتب " كرة الشحم ", وكانت تشبه النوفيلا, واعتبرت عملا كبيرا في ذلك الوقت, ولم يكن تشيكوف وموباسا االرواد الحقيقيين , فلقد سبقهما كثيرون مثل " مارك توين , إدجار آلان بو , لكن تشيكوف وموباسا قد وضعا الأسس الحقيقية لفن كتابة القصة القصيرة
أما في عالمنا العربي , فلا يمكن انكار دور محمود تي**مور** , - أبو القصة القصيرة المصرية والعربية- والذي أعجب بما يكتبه أخوه الأكبر محمد تيمور , فتفوق عليه , كذلك أسطورة القصة القصيرة يوسف إدريس , الذي كتب " أرخص ليال " 1954, لقب بأبي القصة أيضا
أما محمد حافظ رجب , الذي كان قد شق طريقه في عالم الكتابة , وكان يعي أو لايعي مقدار موهبته , وأنه ذلك الصبي البائس بائع اللب والسوداني وسجائر الهوليوود , يبدأ السير في طريق طويل , وشائك , وأن المنافسة ليست هينة , وأن عمالقة مثل نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم , يسيرون بل يلهثون في درب الإبداع , يصل نجيب محفوظ إلي اقتناص نوبل , ويوسف إدريس يرشح لها أكثر من مرة , ويرثي لعدم حصوله عليها , أما حافظ رجب , فقد بهر الألباب

بكتاباته – السحرية- , لكنه تقوقع بعد بعض محاولات لشق الطريق بالقاهرة , فكانت الإسكندرية المقبرة والمنارة في آن واحد , لقد استطاع من موقعه ,بموهبته المستفزة , أن يلجأ العالم للتنقيب عنه , والسعي وراءه , وفهم الرجل اللعبة , وعرف أن محليته قد تكون سبب العالمية ,
حافظ رجب كانت عيناه تبصران بشكل مغاير , كان واقعه سحرا خالصا , كان واقعا مؤلما , ضبابيا أحيانا , صارخا أحيانا أخري ..مبدع , وبائع متجول , يشعر بعظمة الأنا , يشاهد المشاهير يرتادون السينما , ويحادث بعضهم , لكنه ليس مثلهم , وإن كان يشعر بأنه لايقل عنهم .....هذا الإرباك , هذه الثنائية " الفصامية " psychosis, كان لابد من ترجمتها إلي شئ إما إبداع أو جنون , وكان حافظ رجب ذكيا , استطاع أن يقبض علي الفكرتين :- الإبداع والجنون .
الواقع مؤلم , أرصفة محطة الرمل الخشنة , تتحرك الكائنات من أقواها الإنسان إلي أصغرها ,ولكل عتوه وقسوته .....ليس الواقع بريئا, ولا سهلا , ليس الواقع كما تراه العين أو ترصده الأذن العادية , كذلك ما تابعه من أفلام , سحر السينما , وتكنيكات السينما مثل المونتاج , الفلاش باك كسر الواقع والإيهام, التداعي الحر وغيرها , كانت تداعب خياله وذاكرته , ومخيلته , الأشياء ليست كما نراها تماما , الأشياء ليست ما تصنعه العين من صور , وتوهم , لكن الجماد حي والموتي يمارسون حياة أخري , لكننا قد لانكون بتلك الكفاءة كي ندرك ذلك , لكل شئ قدرات مغايرة .....كائنات براد الشاي المغلي , الكرة ورأس الرجل .....فالكرة بديل اجتماعي " توافقي " للأحزاب .....طريقة عصرية للصراع.....
يتمكن حافظ رجب من الإمساك بالخيوط , يستطيع تحريك شخوصه كيفما يشاء, يعي قدر موهبته والتي راهن عليها , استفاد من ماركيز , وفيرجينيا وولف ,و تيار الواقعية السحرية في أمريكا الجنوبية , لكنه قدمه , من خلال ذاتية سكندرية مصرية , لاترغب في التقليد الأعمي , استخدم " بيئته " التي عاشها وعايشها , وقدم الشخوص والأحداث التي مرت به , وأضفي عليها مناخا سحريا , منحه خصوصية , ينفرد بها وحده .
والسؤال ....هل كانت كتابات حافظ رجب هروبا من الواقع ؟ أم قفزا عليه ؟ أم مواجهة له بطريقة مبتكرة ووسيلة الانتقام منه ؟ ...وهل نجح محمد حافظ رجب , في تقديم فن مصري خالص ؟ وهل كانت " تكنيكاته" قادرة علي صياغة أفكاره ؟.....كذلك يمكن أن نتسائل , هل استطاع منح المتلقي مفاتيح الوصول إلي فك طلاسم نصوصه؟ ومامدي إسهام التداعي الحر والتفكيك في إعاقة التعامل – التقليدي مع نصوص محمد حافظ رجب ؟ .....هل كان صادقا حينما قال نحن جيل بلا أساتذة .وهل كانت له أياد علي كبار أدباء مصر مثل نجيب محفوظ, ويوسف إدريس –علي سبيل المثال_والجزء الأخير من السؤال هل سيبقي فن محمد حافظ رجب طويلا أم أن النقد البعيد عن المجاملة قادر علي نسف هذه الأسطورة ؟

ما يسمي بتيار الوعي والخلفية الفرويدية consciousness and unconciousness stream

عرف مصطلح تيار الوعي عند عالم النفس المعروف – وليام جيمس – وهو بالمناسبة شقيق الروائي هنري جيمس, ويتناول الكثيرون المصطلح ويتناولونه برؤي مختلفة, لكن المقصود بهذا , وصف الانسيابية , أو ما يمكن أن يسمي بتدفق للأفكار والمشاعر, واستثمر كثير من النقاد هذا المصطلح , وتم التعامل من خلاله وتطبيقه علي أعمال أدبية عند فرجينيا وولف , وجيمس جويس , ووليم فوكنر , كذلك صنف البعض رواية مثل " السراب " لنجيب محفوظ" , علي أنها تيار وعي ,ولقد عرف تيار الوعي- بأنه " أسلوب التسلسل التلقائي , كذلك يبدو المصطلح أكثر وضوحا عند جيمس جويس , الذي قدمه بشكل موجز وواضح قائلا :- تيار الوعي هو إطلاق للنزعات والرغبات وكل ماهو غير مألوف في العلاقات الجنسية عبر التفسير الفرويدي "
ونلاحظ أن جويس ربط المصطلح بمصدر نشأته , حتي يكون التعريف أكثر تحديدا.

ولكن بالرغم من هذه الدقة الفائقة , فإن التطبيق اللاحق للمصطلح ,قد يدهشك بأن الفهم السائد خاصة عندنا في الشرق- هو فهم معاكس , قد يكون علي النقيض تماما , فأذا كان علي المرء أن يترك لنفسه العنان , وإطلاق الرغبات, والمكبوتات , وعدم التوقف عند التابوهات Taboos بل كسرها تماما , فإن ذلك لايكون أكثر من تيار اللاوعي " وليس تيار الوعي !
وليس هذا ضربا من التفلسف أو محاولة المغايرة لمجرد الاختلاف , لكنه أيضا تعويلا علي المنهج الفرويدي , وعودة إلي أدبيات علم النفس , وخاصة علم النفس التحليلي لدي فرويد ومن سار علي دربه!!
فقلد بني فرويد نظريته علي تقسيم النفس إلي أقسام ثلاثة :- الأنا Ego, الأنا الأعلي Super Ego, والهو ID
فالهو مكمن الرغبات والأفكار المنحلة والرفوضة اجتماعيا ودينيا , والتي يخشي الإنسان أن يطلع عليها الآخرين , لأنها ستجابه بالكثير من الاعتراضات والرفض واحتمال كثير المحاسبة والعقاب .
وهنا يكون الدور الاكبر للأنا الأعلي Super egoالتي تكبح جماح الهو , وتمنح الأنا المواضعات المجتمعية التي تسمح للفرد أن يسلك وفقا لمعايير الجماعة , وأن يكون عضوا منهم دون الدخول في مساءلات أو مواجهات اجتماعية, أو دون ممارسة سلوكيات شاذة.

اتكاء أعمال محمد حافظ رجب علي تيار " الوعي "

الدارس لأعمال محمد حافظ رجب , يلحظ اتكاء معظم أعماله علي تيار اللاوعي المعروف- نقديا- بتيار الوعي , ونلمس ذلك واضحا في " الكرة ورأس الرجل " , " كائنات براد الشاي المغلي " " حماصة وقهقهات الحمير الذكية " " عشق كوب عصير الجوافة" , وغيرها .
فالكاتب , يترك " الشخصية " تتحرك في الفضاء المنوط بها دون أي تدخل يذكر , دون إيديولوجية مسبقة , دون رسم مسارات مسبقة , أو الحث علي ارتكاب " حدث " ما , كما أن الهدف النهائي غير محدد , القصة تكتب نفسها بكل منطلقاتها , وشخوصها , وأحداثها , لاتوجيه للأبطال أو الأحداث , لامواعظ , لاهدف !
قد يلقي بالاشارات التي توحي بموقف ما " مع/ ضد " دون أن يقول ذلك صراحة, مطلقا العنان لعمله ,متكئا علي تكنيكات عدة منها التفكيك , المونتاج , الكولاج , وربما كان لدور السينما والمؤثرات الفلمية كبير الأثر عليه , لقد كان يحاول كتابة القصة بشكل سينمائي , كان يحاول تجييش قلمه ليصبح كاميرا , يستخدم الفلاش باك , مرة , و المونولوج مرة أخري , ساعيا لجعل كل ما يدور " داخل " الشخصية , واضحا ظاهرا للقارئ , يرسم محمد حافظ رجب الشخصية سيكولوجيا للقارئ أو المتلقي , لا ليحكم عليها أو يقيمها , ولكن ليتفاعل معها , ويعيد قراءتها من جديد , بل ليعيد كتابتها من جديد!
إن حياة محمد حافظ رجب , هي حياة ذلك الشخص , الذي أجاد لغة الرصيف , أجاد فن المراوغة , قدرات الحذف والإضافة, مهارات فكرية ولغوية , العمل في الشارع هو منحة فضائية لرؤية الفراغ والكتلة بلغة الفن التشكيلي , إنه يري الحياة ملونة بكل ماتمور به من صراعات وشخوص وأحداث وعبث , يستخدم الاستبطان, والمونولوج الداخلي , وكل المهارات والقدرات العقليةلإنشاء علاقة مع الآخر

التوسل بالتفكيك كأحد تكنيكات القص

سيواجه القارئ تركيبات معمارية جديدة , وفراغات وتغيير وانخفاض , وارتفاع مفاجئ لم يكن متوقعا فمرض كالذهان psychosis, قد يكون وصفا لشخوص كثر من أبطال هذه القصص وفق تيارلعام الذي يكتنف مثل هذه الكتابات لايمكن إلا أن نقول :- أنه يعبر عن ذهانية هذه الشخصية القصصية , فقصص محمد حافظ رجب تعاني " تغيرا " في الدوبامين والسروتولين في أجزاء المخ .
وهذا التغير هو الوحيد الذي يمكن أن يمنحنا أشخاصا وأحداثا مثل ماورد في قصص محمد حافظ رجب , من تفكك وتطاير وعدم ارتباط بالواقع , إضافة إلي الهلاوس التي تتسرب من رؤوس أبطال هذه القصص وفقدانها للاستبصار insight.

معالم الواقعية السحرية عند محمد حافظ رجب Magical realism

ربما كان مشهد قتل قابيل لهابيل ومجئ الغراب لتعليمه كيف يواري سوءة أخيه كانت واقعية من نوع سحري ما , ربما بل بالفعل بهرت قابيل نفسه الذي أصابته الدهشة والحسرة والألم ياويلتي كيف كان هذا الغراب أفضل مني – فهي قديمة قدم الإنسان , لكنها- فنيا- توجد في ألف ليلة وليلة , وفي كليلة ودمنة , وحكايات الجدات , والأساطير التي مزجت الواقع بالخيال , ونجدها في " المسخ " لكافكا Metamorfosis, ويمكن أن نراها واقعا لامعقولا " فنتازيا , فلو أن كاتبا كتب قصة فيها خطيبة شاب ما تتناول الغداء معه , فوضعت الملعقة جانبا , ونظرت يمينا ويسارا , ثم ركزت في عيني خطيبها قائلة :- ثانية واحدة ,واهتزت عدة مرات , ثم اخرجت لسانا مزدوجا لتلتقط أحدالأطباق لتحتسي الشراب بسرعة البرق , ثم تنظر لخطيبها مبتسمة , سأخلصك سريعا من ضجة هذا الطبق فتنظر إلي الأطباق التي تذوب أمام عينيه وتتلاشي , ثم تمسك بيد خطيبها ويرتفعان فوق المناضد ليقفزا داخل سيارة ويغادران المكان !فهذا ملمح يشي بواقعية سحرية قابلة للتطور , متجاوزة المجاز البلاغي المتعارف عليه , ولايمكن التعامل معه ببلاغة قديمة أو بفكر قديم , لا لأن البلاغة القديمة عاجزة, ولكن لأنها لم تتعرض بهذا المعني لذلك من قبل! ومثل هذه الكتابات , هي تجربة لايمكن أن تتكرر, كما تقول" إيسابيل آيندي" الروائية التشيلية المعروفة" كلما انتهيت من كتاب شعرت بالإنهاك والخوف إلي حد الموت , لأني كتبته في لحظات خاصة وبالتالي فإن التجربة لن تتكرر , وكل كتاب هو هدية لي " أو كما يري بورخيس أن الأدب ليس محاكاة للواقع بل لابد من أسطرته لأنه لايمكن القول أن الأسطورة تقع في بداية الأدب, وفي منتهاه.

* مجموعة " عشق كوب عصير الجوافة

" الإقامة في سركي الوارد أنموذجا"

إن مطالعة عنوان المجموعة " عشق كوب عصير جوافة , لايشي بأي شئ غير مألوف علي الإطلاق , فعشق كوب عصير جوافة شئ طبيعي لأناس كثيرين , مثله مثل عشق أي كوب أو

طبق أخر, وبالولوج إلي ساحة المجموعة , تطالعنا العناوين التالية :- قصة تحمل عنوان المجموعة , عناوين أخري مثل :- مابقي في المصفاة , توترات شق التعبان , الموت الداهم تلفظه الحوانيت , الإقامة في سركي الوارد , المقطع الثاني من رواية , الجولات الساحقة لهزيمة الدرويش الصاخبة , قاطرة الفحم المشتعل , حامل حفنة النار والضرير, الذي تجشأ قشا , عشر قصص قصيرة , تحت عناوين طبيعية تماما لا سحرية فيها علي الإطلاق سوي قصتين " الإقامة في سركي الوارد " و " الذي تجشأ قشا " وبقراءة قصة " الذي تجشأ قشا نجد أن المناخ السحري يطالعك منذ بداية المشهد:- ط الحلوف الصغير داخل دورة المياه يزوم , يبتلع ملأ وزنه ليرش أرض الله المحترقة تحتهم "

كذلك :-فرت منه ,من عالم الأسرار الرهيب,بلا رب يعيش , يأكل لحمها , في الصباح يطهيها فرت بما تبقي من لحم الجسد والروح , ونلحظ التفكك والتداخل والتداعي الحر Free associationالذي يجعل " الحلوف الصغير " داخل دورة المياه , يزوم في حالة تحاور مع " راهبة بوذية تحرق نفسها احتجاجا علي تزوير الانتخابات في فيتنام ",إلي محاكمة " صلاح نصر ", وإن كنت لن أتوقف كثيرا عند هذه القصة , فهي لاتمثل النموذج الكبر الذي أود الإشارة إليه وتطبيق رؤية نقدية يمكن الاتكاء عليها في مناقشة واقعيته السحرية , وتكنيك الكاتب في تناول قضايا ه , ولكن ما يلفت انتباهي ويستدعي توقفي عنده هو قصة " الإقامة في سركي الوارد " **وبالرغم من القناعة بان العنوان عتبة أو مدخل النص , فإنه قد لايشي بالمضمون , فالإقامة في** سركي الوارد قد لايعني ما نفهمه من الوهلة الأولي , فقد تكون الإقامة مجرد صيغة مبالغة لكثرة ما تعامل مع السركي لاأكثر !, وليس تماهيا فكريا ووجدانيا, ولكن بالتحليل والغوص في مفردات القص , تجد هنا , أنك تقرأ اثنتي عشرة قصة لكل منها شخوصها , ,أحداثها وتكنيك كتابتها يربطها خيط واحد هو الخيط السحري الذي أراده الكاتب لقصصه .

الرجل الصامت :- التهمت لحمهم , مضغته , بصقت ذراته فوق الأرض الصماء

عدت إلي السركي , جلد لحمي هو , أدخل فيه , اختفي بين جدرانه , أذهب به إلي السلسلة, كل الخيوط تتقطع , تتدفق تدفقا لاواعيا, تقفز علي الواقع , الخروج من موضوع , الدخول في آخر تفكك فكري , لايوجد تسلسل للأحداث أو ترابط , لايوجد منطق للأشياء !

هكذا استطعت – هنا – رصد اثنتي عشرة قصة, وكأنها متتالية , شخوص جديدة , قديمة وأحداث منفصلة متصلة .

يمكن التعرف سريعا علي ملامحها من خلال عرض بعض مقاطعها ومحاولة ":بحث " هذا الانقطاع بين مختلف الأجزاء "1-حضر الرجل الشرير , صديق بهجت رئيس السكرتارية ..يلف الغموض هذا الرجل , قال لي الرجل الشرير :- أريدك في المساء والظهيرة , في كل واد ,إلي أخرجت سيفي وضربته ضربة واحدة.,أسناني بدأت تتساقط.

وفي النقلة الثانية – يوم الخميس حضرت عزيزة خالتي و أم كامل صديقتها ,أم كامل تسوق أمامها رجلا جلفا , في عنقه طوق من حديد , تتدلي منه سلسلة , تمسك أم كامل بطرفها, تعتبر قصة مكتملة عبر قصة.

أكبر أبناء أم كامل في الخامسة والأربعين ,تستولي علي نقود أولادها ومساعدتها وتقدمها لزوجها الكنترجي , عمره أكثر من سبعين سنة , وحشاش بريمو , تقدم مساعدات أولادها الي ابنها منه .

أما القصة الثالثة أو النقلة الثالثة تبدأ كالتالي :- المحروسة (اتفق وزراء الخارجية العرب علي انعقاد مؤتمر القمة في الخرطوم ,عبد الناصر يرأس اجتماع مجلس الوزراء الليلة

وتبدو القصة الرابعة – ولها علاقة بعنوان القصة – " عدت إلي السركي :- جلد لحمي هو, أدخل فيه., أذهب إلي السلسلة لأشاهد رماة الأطباق الطائرة , وأحاول أن اصطاد السمك بلا سنارة في البوصة ولا شبكة "

والقصة الخامسة :- بينما أنا أغلق النوافذ علي , ترامي إلي صوت ضجة وبرز لي من بين السطور الوارد أحد الرجال.
من حسن محمد محمود إلي قائد شرطة المرافق,توفي عبد القادر سلامة أحمد انحصر ميراثه في زوجته ...إلا أنها تزوجت من زميله المدعو أحمد خليل زقزوق سرا وبعلمه _ " لاحظ التناقض "
_
ورزقت من زوجها الحالي بمولود ,ينتقل إلي قصة سادسة :- نعمة عبد المعطي الشربيني تدخل من النافذة ,تكذب الشكوي السابقة(والنبي يا خويا الولية دي فاضحاني في كل حته , أنا ما اتجوزتش يا نضري,دا واحد صاحب جوزي المرحوم بيتردد علي بيساعدني ,وأنا لا اتجوزته ولا حاجة
ثم يعود إلي قصة أم كامل منتقلا إلي القصة السابعة :- مصطفي أبو شامة جلس يابني بجوار دهاليز وحواري السكرتارية
أما القصة الثامنة تبدأ ب قالت فايزة :- لأبو اليزيد,طلب من أبو اليزيد يهوي لها انزعجت من قربه الشديد منها وطردته!

عائدا إلي السركي الذي يمثل تميمته في القصة التاسعة : بين جدران دفتري , جلست أسجل الوارد القادم إلي السكرتارية ,لفت نظري الضعيف الشكوي المقدمة من العاملين في حديقة الحيوان بالنزهة , القسم البيطري , ونحن واثقون من السيد المحترم محافظ الإسكندرية بأن ينظر إلي طلبنا هذا وصرف جميع مستحقاتنا عن ساعات العمل الإضافية وهي تبلغ 3 أشهر من تاريخ 1-5-67
أما القصة العاشرة شئ مغاير تماما " ترامت إلي أصوات كثيرة متنافرة , وسع ياجدع انت وهو ,وسع الأسد وجماعته وبقية الحيوانات جايين لتدعيم مطالب رجالتهم, وجدت الأسد وجماعته وبقية الحيوانات يدخلون :- السلام عليكم ....علمنا أن رجالتنا قدموا شكوي لتحسين أحوالهم, واحنا جينا ندعم موقفهم
القصة الحادية الحادية عشرة : أزحت الستائر عن نافذة مرقدي ,ووجدت سائق سيارة خاصة يرفع حنجرته بالصياح , يالا يابيه المرور يمنع الوقوف هنا ,صاح أبو اليزيد يافندي يا حمار أنا جي أهه
أما القصة الأخيرة دخل الشرير , تلاشي بهجت, صار عصير خيار لم يدركه المذاق الطيب بعد قلت له :- أين حذاء قدميك ؟,ذبحتك بسيفي ومازلت تحبو ؟
سألته :- هل وقع بصرك علي أم كامل وأنت في الطريق إلينا ؟ سأرسلها إليك لتستلم جثتك بعد تحنيطها ,خلقت سيفي مرة أخري , هويت به علي عنقه ,طار من مكان رقدته ,تمتم ,هديتي لك يا أم كامل ,أيتها السيدة الطازجة دائما
استخدم القاص ,بحرفية واضحة ,كل أساليب التفكيك والتداعي الحر , بعثرة الأفكار والشخصيات , الوساوس والهلاوس , يرمي بها إلي عبثية الكون والمشهد بأكمله عبثي مبعثر غير قابل للإصلاح , مستخدما أدوات عدة , كالفلاش باك flashback , المونولوج , الحوار , الوهم fancy , الحلم dream عبر أحداث واقعية بسيطة عادية وهي كتابة يمكن أن أطلق عليها كتابة وظيفية , بمعني أنها قادرة علي القيام بدور تطهيري , كهدف رئيس من مثل هذا النوع من الكتابة يمنح محمد حافظ رجب نفسه الحرية الكبري للانطلاق دون قيود أو تابوهات ,والتي قد يكون كثير منها مكبوتات, أو إثر تجارب شديدة الإيلام , لايمكنه التعبير عنها بشكل مباشر , لأنها شديدة المرارة , يصعب علي النفس البوح بها , فيكون الأدب مصيرها .
لنا أن نتناقش حول دور التفكيك في كتابات محمد حافظ رجب , ومناقشة تفضيل الكاتب لاستخدام هذا التكنيك ومدي نجاحه في توظيف هذه الآلية , يسمح هذا التكنيك بالبوح ,والتماس والتابوهات وبعض من المسكوت عنه في إطار تخييلي , قي الكاتب خوض معارك شخصية ,محققا امتاعا للقارئ ,الذي يجب عليه أن يكون واعيا بالكثير من تكنيكات الكاتب , ليتفاعل مع نصوصه , ليكون قادرا علي الكتابة اكمال الفراغات وملئها للوصول إلي مالم يقله الكاتب , أو ما لم يرد قوله بالأساس أو ما يتخيل المتلقي أنه يمكن أو يجب أن يكتب , كما أنه يتفاعل مع العمل معيدا انتاجه

من جديد في حلقات غير منتهية من ،إعادة الانتاج اللامتناهي والذي يظل يعمل بلا توقف, تحقيقا لمقولة " إيسابيل آيندي " عن مفهوم القصة القصيرة هي " كل شئ مرئي , وإذا أجريت فيها تصحيحات كثيرة تفقد تلك اللفحة من الهواء البارد التي يحتاجها القارئ , إن كتابة القصة القصيرة مثل إطلاق سهم , حيث تتوافر غريزة وممارسة ودقة رامي الأقواس الجيد , والقوة اللازمة للإطلاق والعين القادرة علي قياس المسافة , والسرعة في الرمي والخط الطيب لإصابة الهدف الرواية تصنع بالعمل , والقصة القصيرة بالإلهام , كذلك نجد العالم الغرائبي في كتاب الرمل لبورخيس والتي تحكي قصة رجل يحب الكتب ويهوي جمعها , إلي أن يقع علي كتاب كلما قلب صفحاته لايجد له نهاية " , هل كان محمد حافظ رجب بهذه القدرة علي فهم عالم القص الغرائبي ليستخدم مفردات دهشته بهذه القوة , صامدا عبر الزمن , بقدرة جبارة علي توليد عالم تخييلي معقد , يمنحك المتعة والدهشة ,هل تأثر بكل رواد هذا الفن , فامتزج كل بوجدانه , لينصهر في كيمياء جديدة ,قدمت نفسها في ردائها المميز ؟ هي أسئلة ازالت قيد الإجابة , ولابد من إعادة صياغتها عبر هدم وبناء , تفكيك وتركيب , سعيا لفهم هذا العالم السحري .

إطلالة علي سيرة الناطوري

رواية سيرة الناطوري لمصطفي البلكي هي بالأحري نوفيلا أجيال , أرادت أن تتعقب سيرة ذاتية للكاتب كتمثلة في حفيد يحتفي بسيرة جده المنهزم , سرد يتحفظ علي الهزيمة وكنهها وتكرار وقوعها , بالرغم من الإدراك الجمعي للهزيمة , وربما كان ذلك نوعا من الميكانيزمات الدفاعية التي نرتكبها يوميا من إنكار ممتزج بعناد نرفض فيه إعلان الهزيمة ومن ثم الموت , كانت نكسة

1967 هزيمة منكرة لم يتذوق أي جيش مثلها في العصر الحديث علي الأقل , لكن إعلام مبرمج اتطاع تصوير الهزيمة علي أنها موقعة وأن الحرب لم تنته بعد , وأن القادم أفضل , وبالرغم من أنه كان إعلاما مصنوعا كاذبا , وبالرغم من مساوئه إلا أنه كان مفيدا فلقد بث الأمل في نفوس المصريين الذين لم يستوعبوا الحجم الحقيقي للهزيمة والتي من المرجح لو كنا قد وعيناها لمتنا كمدا علي الأقل , أو تلنا أنفسنا .
تمارس القرية والحفيد وأحفاد الناطوري الكذب علي أنفسهم , بل يحتفلون كل عام بما يشبه الاحتفال بهزيمة وانكسار , لكنهم يحيلون الاحتفالية الجنائزية إلي مولد أو عرس , تتزين فيه العروس بكل وسائبل ومساحيق التجميل , رغم ما يطل من عينيها من حزن وانكسار , فهي ل تتزوج الحبيب , لكن العنوسة التي عانت منها هي التي اضطرتها للارتباط للتخلص من أزمتها والقيل والقال.
تناول الكاتب السيرة عبر فصول ذات عناوين تسعة, يضمها متنان المتن الأول يضم خمسة عناوين والمتن الثاني يكتفي بأربعة تميل العناوين للذكورة في حين لاتؤنث إلا في عناونين الثاني والثامن رغم أن للنساء الدور الأكبر في السرد ويكاد يكن الأبطال الحقيقيون زهيرة وسكرة , جيهان وياقوتة , فالذكور إما غائبون أم محكي عنهم أو يحكون السيرة بلغة المهزوم , في حين تدب الحياة في النساء رغم أنهن يعيشن المأساة , لكنهن أقدر علي التأقلم والتجاوز

1- اليوم الكابوسي
2 - زهيرة وحكاية نبات القريللا
3- الجد هاشم
4-الربع , حكاية لها العجب
5-صاحب الشيلة " العم سليم "

المتن الثاني

6- اليوم المشهود
7-الرجل الشجرة
8- امرأة الحزن
9-آخر مشهد

يستعيد الحفيد سيرة الجد الأكبر الذي كان يحكم المكان , بطلا شعبيا مثل ابطال حارة نجيب محفوظ , لكنه لم يكن بطلا مطلقا , ليفوز بالحكاية في نهايتها ,لكن بطل روايتنا –علي عكس المعتاد دراميا بطل مهزوم محتف به في مشهد عجائبي , لا يحتفي به الروائيون إلا قليلا , كما أن المرويات عن بطولاته وشجاعته غير مبشرة باحتفال واحتفاء حقيقي , سوي نوستالجيا الأحفاد والحنين إلي الماضي –مهما كان سوءه-

عبر تيمات من الحكي الشعبي ومفردات البيئة التي تتناثر هنا وهناك لتشي بمناخ قرية تبدأ الحكاية يسبقها "تمهيد لرأي الكاتب السارد في أحداث روايته وشخوصه وأحداثه وكأنه يعلن سلفا تنصله منها فيقول :-

" العودة لاتعني لي شيئا , لكن تعيد وجودك"
ثم يفتتح مشهده بنوع من الفزع والقتام تحت عنوان شديد التراجيدا وهو
-1
اليوم الكابوسي

بدت رحلتي الملحة ,بعد زمن قلت فيه ,ليس أوانه , شبه نفسه كفرس النبي الذي يحب الأغصان الخضراء التي تعيش في البراح , لكنها أحيانا تغادرها إلي اليابسة فتكون نهايتها , يعبث بها الأطفال لوقت قصير

0
الجد هاشم يريح جسده علي لمصطبة بعرض الحائط و أحيانا ينضم إلي الجلسة العم سليم إذا صادف اليوم يوم سوق"
ثم
0" وتسحب الشال المبقع بالدم والجلباب القديم من الدولاب , كأنها جزء من الحياة لها من المقومات ما يكفيها علي صنع دنيا"
لا يعرف القارئ علي وجه التحديد شال من أو دماء من ولا يعرف شيئا عن قصة السارد , وبالتالي يضع القارئ المتلقي في لحظة ترقب وتساؤل وانتظار
عبر جملة مرتبكة التشكيل :-" كأنها جزء من الحياة لها من المقومات ما يكفيها علي صنع دنيا" فمن لديه مقومات صنع دنيا , لا نقول عنه " كأنه " بل " نتحدث عن حتمية كينونته"

0 فها هي قد "عاصرت نجمه , وضياع حلمه وتضع الصورة في حضنها " في حين يظل المتلقي في حال الترقب والانتظار ليتبني الحدث ويبدأ التفاعل معه , ولا يترك السارد القارئ في حال صمت التلقي والانتظار حتي يداهمه بعدودة تزكي المشهد الجنائزي :-

الناس كتيرة وانت ليه غايب
ياللي قطعت الود والنايب
الناس كتيرة وانت غايب ليه
ياللي قطعت الود والنايبين
وبالرغم من سيطرة المناخ الريفي بكل تفاصيله علي المشهد , إلا أن جيهان –الرافضة لكل ماحولها , تلعن الجو الريفي بمفرداته :- البشكور والفرن والوقيد وتتساءل متي ينتهي الجهل والتخلف , ولا تكتفي بذلك بل يدور بينها والاخ الاكبر حول سفه الام وانفاق اموالها
في حين تتفاني سكرة في عمل المنزل تخبز البتاو لانه لاياخذ وقيد كتير0الاخ يلبس جلباب النهض المخطط وهي –سكرة- ترتدي جلباب باتستا منقوش بالورد واوراق الشجر , لم يستطع ابن عمها اخذها من فوق الفرس عند زفافها لاحد ابناء القرارية
اقتحمت الحشود لتري الجد هاشم الذي جذبها بيده
الاب كان رافض كون سكرة انثي , كانت بألف رجل

ثم يكون الفصل الثاني فصل جيهان وسكرة بامتياز رغم عنونته ب
2- زهيرة وحكاية نبات القريللا
فيقول
لايكتمل الصباح دون ثورة جيهان
0 رد الفعل ياتي اقل من الفعل

لو انصتت سكرة لزهرة المصراوية لتغير الامر , كيف وهي تدخل الفصل دون عصا فيتخشب جسد الطالب ,لكنها تفقد هذا الاثر داخل المنزل, وهنا في الفصل الثالث المعنون ب

3- الجد هاشم

البيت م الخارج يبدو عليه اهمال الجد هاشم
بعد ان يعود يظل مستيقظا ولا يقربني تقول زهيرة وفي الصباح لايفطر , ويخرج تمصمص زهيرة شفتيها وتقول من اليوم المشؤوم يطلع ومايعرفش هو رايح فين
0 تصر علي وزن فردتي صدرها , كلمة فردة كلمة غير ملائمة في هذا الموضع تماما اخطاء لغة " تعسر "
وتظل حكاية الناطوري معلقة حتي الفصل الرابع –قبل الأخير في المتن الأول

4- الربع

حكاية لها العجب
انا ابن بنت الناطوري احتاج الجد هاشم الجالس في مقهي تحية بعد زيارته السنوية للسوق
الربع لايرد علي اهانات الجد توقيرا له
حسين ابن سكرة يحكي كان بيزور العجوز ام الربع مع سكرة امه وكانت تزورها بحجة اي علاج لحسين
طلبت ام الربع من سكرة تسامحه خاصة انه عرض نفسه للموت يوم فرح سكرة
طلبت ام الربع 3 ايام ورا بعض علشان يخف اليوم التاني كانت ام الربع متوفاة

0 الربع يحكي ماحدث كنا حوله في قهوة ابو صبرة قرب السوق وتوغل الاغراب في السوق ونافسوا اهل البلد رمز دلالي علي توغل المحتل واختراقه كل الخطوط الحمراء , بل تغلبه علي أهل البلد
نلحظ جملة خارج سياق السرد لغويا " كانت المنطقة التي تأكله " وهي تركيبة عامية لا تتساوق والتركيب اللغوي الفصيح الذي يستخدمه السارد عبر روايته , لايتخلي السارد عن رغبته الأكيدة في التشويق , وعدم إخبار المتلقي بكل مفردات العمل دفعة واحدة , بل يتجاوز ذلك إلي إخفاء كثير من التفاصيل عن شخوص السرد أنفسهم , دون مبرر واضح

"سألته هوده الجرح قال أيوه
والثاني ؟

قال حكايته عند سكرة
حتي طلب سكرة من حسين ألايجتمع بالربع في مكان واحد ولو كان بيت الله ! لانه بوجوده حتطولكم النجاسة
حسين يري انه يمكنه شراء بعض الناس ولو بسيجارة او كوب شاي تحدته قائلة جرب قال بس انا عايزها منك قالت الكلام عندي خلص , وهكذا يبدو بتر السرد عند حدود معينة وكأن السارد يخشي كشف أسرار شخوصه فتقل قيمة السرد لدي المتلقي , في حين أنه يلقي ببعض الخصائص التي تسئ إلي الشخوص , لكنه حينما يريد لا يلقي بالا لا بالسرد ولا الشخوص ولا المتلقي فيآن واحد !فيصف الربع بأنه

" حشاش وشريب افيون وبتاع نسوان"
كما يصف الصراع الدائر علي نيل سكرة
ابن عم سكرة يتصارع لاخذها من المدرس الغريب
الناطوري يدافع عن اختيار سكرة للغريب رغم العرف ولتقاليد الذي يحميها هو
وقال للناس كيف حالكم اذا اجبر احدكم علي لقمة لاتروق له
رغم ان الربع حمي الناطوري من الزقلة ,لكن سكرة لاتحبه وتسميه هباب البرك وكذلك هاشم لايحبه , يقف الناطوري نصيرا للمرأة "سكرة " مدافعا عن اختيارها رغم أنه حامي حمي التقاليد بل هو واضع بعضها إلا أنه يدفع عن اختيار سكرة حبها

5- صاحب الشلة

العم سليم

تتداخل فصول النوفيلا حيث يتضافر عنصر جديد ونسيج الرواية , فموقف المسيحي يتماهي مع موقف المسلمين , لاتشعر بأن للدين حواجز أو موانع أو احداثا للفرقة ,بل تتماهي المواقف , تنفتح البيوت المسيحية للمسلمين كما تنفتح بيوت المسلمين للمسيحيين يتناولون الطعام الواحد , لا يدرك الغريب الفرق بين البيتين و فلا شئ مختلف , سوي بعض الأيقونات الخاصة بالسيد المسيح والسيدة العذراء وربما صليب معلق هناك و وآية كرسي أو المعوذتين علي الجانب الآخر , لكنك من الصعب أن تلمح سلوكا مغايرا لأي منهما يدل علي قطيعة أو خلاف

حتي الأماكن التي تحمل اسما كبراح التصليبة , لايخص شخصا بعينه , ولا يدل إلا بشكل رمزي أو إشاري لا أكثر علي حالة سرعان ا تحللت واحتوت الجميع بين ثناياها, فلا فرق بين براح التصليبة و سبيل شاكر , حتي أن التشويه يأتي من قبل جيهان تجاه ياقوتة ذات الصورة النقية في العقول, لكن جيهان تراها عكس ذلك
جيهان ذات الزي الشاذ عن الجماعة , وحيدة لاتقيم علاقات مع البنات تروج شائعات عن علاقات عابرة لياقوتة مع الشباب حتي زوجها الحالي
ياقوتة بنت عمي سليم
الذي يعمل بائعا متجولا ويجمع البيض ويورده للمراكز, أمي علاقتها بفوقية زوجة سليم علاقة جيدة لاتقيم وزنا للوضع الاجتماعي
كنت اخرج وياقوتة ونعبرحارة الناقورة وناخذ طريقا طويلا خاليا خشية ذوي الوجوه الصفراء , سلوكيات خاطة التبول والتغوط والتحرش مما يجعلني اتشاجر معهم وارميهم بالحجارة وقد يطلق علي النساء اللاتي يجلسن جلسة لاتستر وقد يطلقون علي كلابهم
تحكي ياقوتة كل شئ لسليم فيضحك ويربت علي كتفي وينظر لصورة جدي المعلقة في المندرة بجوار صورة المسيح والعذراء , سليم لم ير شيئا ,هكذا يرد علي النيابة ,فاطلق الناس عليه سليم معرفش , ومرة طارده كلب فتغوط علي نفسه.
هكذا لا يتوقف السارد عند لحظة وصف عابرة , بل يريد وصف " كاراكتر " تفصيلي لسليم ليظهر سيكولوجيته للمتلقي , في رغبة فضائحية لشخصية سليم , و:انه إدانة واضحة لسكوته وإنكاره رؤية ماحدث , وأن الحفيد لم ينس هذا الموقف المتخاذل من سليم , الذي يعكس ضعف شخصية , وموقفا غير بطولي , لم يكون متوقعا , بالرغم من العلاقة التي تشبه علاقة التبني التي غرسها الجد في أهل المكان , لكن النجاة بلنفس , وإيثار السلامة قد لايفلح مه عشرات السنين من العشرة والجيرة والمؤاكلة في طبق واحد.

& المتن الثاني
تبدأ حكاية الغريب , النذير الذي يرمي بحجر في بحيرة راكدة , البصير في رتل غير المبصرين , يلقي كلمته ويمضيي
قال الرجل :ملعون نسلهم إلي يوم الدين

قال الرجل الغريب :إنه عاش الأيام السوداء التي عز فيها خبز الذرة المخلوط بمسحوق البامية والحلبة والمش الأزرق الذي يقطع ذيل الفار من ملوحته .
وقال " كنا بناكل علي الريحة " ريحة اللحم والفتة "
عم سليم:- أكيد كان الرب غضبان عليكم
- لا وانت الصادق كل اللي جري لينابسبب الإيمان اللي كان كل همنا , شعر سليم بالتناقض , إزاي إيمان وازاي جوع
- الانتقال من حديث مسيحي إلي كان المؤذن ينادي علي الصلاة وتوافد الناس للصلاة جاء رجل وراءه رهط من ولاد نمنم , قال لهم :- مافائدة العمل والدنيا فناء ؟
وفد علي البلدة حاو بالثعابين , ثم جاء ثالث يقول :- البلدة مسكونة , ويجب تغيير العتب فهجر الناس البيوت , وسكنها الثلاثة , لقد احتل الأجنبي البلدة , مستخدما الحيلة , والقدرة علي الإمساك بامفاتيح النفسية للقلوب ومنح بعض الخبثاء القدرة علي السيطرة والتشويش واللعب علي أوراق الفقر والعوز والحاجة , والدخول من أبواب تبدو دينية , محلاة بزخرف القول ومعسوله , في حين أنها قولات باطلة , لا علاقة بالدين بها , فالدين الذي يري أن الدنيا مزرعة الآخرة , لايمكن أن ينهي عن الفعل ولم يكن هناك سؤال للدين ولاتوقف عند " مافائدة العمل والدنيا فناء ؟ " الدين الحقيقي الذي يدعو للعمل حتي اللحظة الأخيرة من الحياة :- لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها و والدنيا مزرعة الآخرة , لكن الجهل والسذاجة للقلوب ومنح بعض الخبثاء القدرة علي السيطرة والتشويش
الناطوري قال له :- ارجع من مكان ماجيت , وشوف الكرمة وخليك صالب عودك تحتها
- يعني اصبر ؟
- واعمل
- عم سليم يكلم سكرة قاطعا الصمت , قامت سكرة وقبلت رأس عم سليم , وزهيرة اغرورقت عيناها ومالت علي ياقوتة وقالت لها :- تعرفي تعملي شاي ؟

-6
اليوم المشهود

-هنا شجرة
-هنا موت
بعد الشر
-هو فين الخير=ويشير إلي الأجساد العارية من النساء والرجال ويشير إلي العراة ك- دول مساكين
قال الأجواد للناطوري

الوقت ريح عاتية والشاطر من يقدر مصلحته ومصلحة ناسه ويحني قامته للعاصفة لتمر بسلام وبعدها يكون له وقفة
يعرف الكاتب الأجود بانهم كبار القوم , كنت أظن أنه سيعرفهم تعريف خاص بالرواية , وكأن القارش في حاجة لتعريف قاموسي لمعني الأجواد الذين لادلالة صريحة لوجودهم بالرواية
هاشم يقول لو أن الأمر بيده القبض علي نساء الشق الثاني ورجالهم بتهمة السفور وحرر لهم جميعا محضر" تعكير مزاج " ضحك الناطوري وقال تعرف اننا دايما نبص لقدام وعيونا في نفس الوقت ننظر للخلف
جدي راح يمضغ كلمات لم تصلني إلا قوله :- الجمل ماشي كويس ويا الجمال , بس الخوف كله من سماع كلام العيال.

تصادفك بعض المشكلات اللغوية , في جملة كهذه :-
" لتحمل ضربات اليد بكلوتها الباظ منها اللحم , الباظ منها اللحم لا علاقة بالعربية الفصيحة كذلك " كلوة اليد " وهو سياق عامي داخل النسيج الفصيح لامبرر لوجوده هنا علي الأقل
ويبدأ فصل آخر من فصول إحدي المآسي
الضابط يسأل – وايه انت ؟
-مربي أجيال ؟
" ضم شفتيه وأطلق ما يشبه ...ثم أردف الحركة البذيئة ب ...طز
زهيرة جرحتها اللكمة التي لطخت رأسا كثيرا ما تحلف به , همست بالرد بطريقة فرش الملاية لكنها تراجعت تحت إلحاح نظرات الجد هاشم , اندفعت سكرة إلي صاحب النجوم
-اوعي تقرب منه
-ليه؟ علي راسه ريشة ؟
يعني هو الواعر اللي بيفهم؟
نظر إلي من كانوا خلفه وصرخ فيهم
نظرة رجل الأمن لنفسه والآخرين , وانه أفضل من الجميع , أفضل من الطبيب الذي يعالجه والمعلم الذي علمه أبجدية لغته التي يتشدق بها الان , وربما كان هو سببا في ثقته الزائدة بالنفس حين شجعه علي الدرس والتفقوق و شق آخر هو شعور هذه الفئات بالتهميش , المادي والمعنوي بداية من أنفسهم وعدم الشعور بالأهمية مما ينعكس علي نظرة الآخرين لهم

7 - الرجل الشجرة

مساء انشغل نفر من أهل الرهبة بكنسها وجمع الدكك والكنب ووضع المفارش والجد هاشم ينظم الجلسة بين الكبار والصغار
عم سليم دائما في حاله لا يتدخل في شئون الناس وبالتالي لا تتدخل في حياته , علي الحافة يعيش تأثيره فقط في النكهة التي يضعها لمن حوله , والمجتمعة بطيب العشرة
لم يعد سليم كما كان كما تقول زوجته تسأله زهيرة انت لسه يابو ياقوته صاغ سليم , قال والدموع تخر من عينيه مش لاقي نفسي من ساعة اليوم المشهود و وطلبت منه ان يعمل زي هاشم يحط همه في البرشام , كل يوم ليه برشامة , ياخدها من هنا وتقول رهوان مبرمج في سبق بيعمل اللي يعمله الناس ويحط جنبه ووشه للحيط وميصحاش غير لما الدنيا تبقي ضهر

- لو عاوز فلوس مش حتلقاها غير مع الحريم
- موزة فقدت زوجها في معركة بين الحلب وأهل القرية
- موزة مثل نساء الناقورة تخرج بوجه مكشوف " كان صدرها طوع عينيه"
- طمع فيها وفي المصاغ والحلق والكردان , فراقبها واصطحب معه كلبه الشرس
- واطلقه فنبح فارتبكت و وف ياللحظة المناسبة خرج وراح يزود عنها , تطورت العلاقة تزوجها وسلب منها كل ماكانت ترتديه , ومضي , استعانت بالناطوري, وكان عنده أبو فريج الذي اشتهاها

" الصوت القوي إما أن يزعج أو ان يصنع مايشبه الخلخلة القادرة علي صنع توحد مع ما يجري والذي هو بطبيعة الحال مصدر الصوت " كلام غير مفهوم , يريد إضفاء الحكمة لم يوفق
-كنت أنا النوتي ولم أخف , يتماهي مع الحكاية
- تفسير الكاتب للصورة :- الأبيض يمثل حكاية الناطوري
الاسود يمثل خنوع اهل البلد
الابيض الحياة
الاسود الموت

8 -
امرأة الحزن

ياقوتة انثي مكتملة الانوثة لم يغيرها الزواج , ولم يسجنها محظورات جيهان ولا أفكارها , لكن ثمة حزن يطل من عينيها
- يقطع ودنه كناية عن الزواج
- سليم يشرب الحشيش مع هاشم والشيخ سيد فيظهر في احسن حالاته
- ربما التكرار الممل للحدث نفسه من عام لعام نفس الكلمات ونفس الوجوه ونفس الطقوس قال الكبير

عندما لايبقي لهذا الخبز وهذا الملح أي طعم في فم كل واحد منكما هذا نذير الملل المتسرب لقلب احدكم
لم يتب من الناطوري سوي حكايات يتناقلها من هم علي شاكلة هاشم , فط هي التي لاتريد أن تنصت للواقع

9- آخر مشهد

لم كن من المفاجئ أن يكون المشهد الأخير هو مشهد الغيرة , فجيهان تشعر بزهو خاص , واحتقار للبيئة الريفية المحيطة بها , لكنها في الوقت ذاته تشعر بغيرة رهيبة ن ياقوتة ولاتكتفي بذلك , بل تسعي للتشهير بها وتلويث سمعتها بأي ثمن , متناسية العشرة والتربية المشتركة , فلا جيهان حصلت علي ماتريد , ولا أقبل العريس المناسب , ولا لديها نفس الذوق والقدرة علي كسب ود الآخرين .

تنتهي النوفيلا بهذا المشهد الختامي

ملت علي راس امي- مكان قبلة ياقوتة ردد ت نفس كلام ياقوتة تعيشي وتفتكري , هذا التماهسي وياقوتة يدل دلالة واضحة علي ما فعلته ياقوتة بالقلوب وماتركته من أثر نفسي لدي الحفيد .

لم نجد راويا عليما , يخطط مستقبل الشخوص , ويحركهم كعرائس الماريونت , بل هو أحد شخوص الرواية , يؤمن بالحتمية بالقدرية , يتحرك وفقا لأحداث الرواية التي رسمها الماضي ذلك الماضي الذي توقف لا زمنيا فقط و بل توقف علي كل المستويات , حتي مستوي الحلم والأمنيات , بل صار الاضي هو المرجو من المستقبل , عودة الغائب هي الأمل , ففي الافتتاحية كتبت العبارة " العودة لاتعني لي شيئا , لكن تعيد وجودك " , حتي لم تعد هناك رغبة في استعادة الماضي أو عودته لتضيف شيئا للحضور , بل هي عودة تخص وجود سلف , وقد عرف الجميع أنه مستحيل العودة , لأنها عودة العجز والمهانة أكثر منها عودة الكرامة والكمال .
استطاع الكاتب أن يمتعنا , بسيرة متقطعة التسلسل يهيمن عليها تكنيكات التقطيع والفلا باك , مستخدما جملا غير مكتملة المعني , راغبا في إحداث تشوش للقارئ , حتي لاينجز قراءة واعية آنية , ليتساءل دوما وماذا بعد أو لماذا , متحيرا بين ماضي غير مشر ف تماما وحاضر اكثر عجزا ونكسارا , بين من باع وخان قضية البلدة " الوطن " ومتاجرين علنيين , يشترون بها ثمنا قليلا دون وازع أو ضمير , حتي الشهود الذي يكذبون علانية , اتقاء للعقاب ورغبة في حياة نصف آمنة و نصف كرية , حتي لو عاش صاحبها ملقبا ب" سليم ما اعرفش ..أو سليم ...
المهم أنه يعيش .
تعمد الكاتب سردا يحدوه بعض الغموض ونقص المعني عبر نقصان التركيبة اللغوية المفيدة , راغبا في تشويق القارئ واجتذابه إلي السطر الأخير من الرواية دون أن يتفلت أو يمل , وهوما نجح فيه الكاتب إلي حد كبير , وإن كان ذلك شيئا إيجابيا , إلا أنه وقع في ترميز أو الأصح إرباك المعني , فلم نعد قادرين علي الإيمان بأن الماضي كان شامخا كريما عزيزا وأنه يستحق الطقوس السنوية التي تحتفي به علي نطاق واسع , فمن أجل سرد متميز , ضاعت بعض الافكار وتداخلت فاختفت الأفكار الجزئية , وبالتالي لا تتضح الفكرة الكلية , ليظل الإرباك سيد الموقف حتي النهاية.
في حين قع الكاتب في الشروح لأشياء قمة الوضوح , لا حاجة للقارئ في شرحها , فهي واضحة وضوح الشمس , كأن يشرح عني الأجواد , وكنت اتخيل أن الشرح سيخص أصل نشأتهم روائيا أو شيئا من هذا القبيل , لكنه يشرح معناه قاموسيا , وهو تقليل من شأن القارئ , واعتباره عديم الثقافة أو غير متعلم أساسا , علاوة علي استغراقه في فك بعض الرموز " إشفاقا " علي القارئ فيقول :-
الأبيض :- يمثل حكاية الناطوري
الأسود :- يمثل خنوع أهل البلد
الابيض :- الحياة
الأسود :- الموت
ولا شك ان هذه الشروح , تهمش السرد وتسفهه , فالقارئ لا يحتاج شروحا مدرسية لرموز بسيطة غير معقدة , ولا أدري كيف طاوعت يداه ليشرح الواضح , في حين أنه كان يعمي بعض الأفكار , ويسرق منها معناها , ويمنحها دلالات مغايرة للتعتيم , في حين يفضح بسهولة ويسر وسبق إصرار أفكارا أخري ويعر يشخوصا , هم في الأساس شركاء الحكي!
شخوص الرواية معظمهم خانع , جبان طماع , مستغل , سلبي ,تستغل الحالة التي كانت عليها عقب وفاة زوجها ,ويستعرض أحدهم شجاعته بعد أن يطلق كلبه الشرس يخيفها , ليبدأ قصة حب كاذبة يستلب من خلالها مجوهرات موزة , ثم يتركها وحيدة , خالية الوفاض , لتستعين بالناطوري , ليشتهيها آخركان موجودا بالجوار .
حاول الكاتب إضفاء العنصر الحكمي عبر سرده , فبث حكمه هنا وهناك " الصوت القوي إما ان يزعج أو ان يصنع ما يشبه الخلخلة القادرة علي صنع توحد مع ما يجري والذي هو بطبعة الحال مصدر الصوت " , جملة طويلة لاتتميز بالحكمة , مرتبكة التكوين والفكرة , في حين أن

الجملة الحكمية يراعي أن تكون قصيرة مكثفة مفهومة , تتصدي للهدف مباشرة , حتي العامية منها " العيار اللي مايصبش يدوش " كم هو سهل بسيط ممتنع أدي الغرض في بضع كلمات :
لقد تسرب الملل لقلب أبطال السرد , وربما سعوا دون قصد لنقله إلي المتلقي قال الكبير :- عندما لايبقي لهذا الخبز وهذا الملح أي طعم في فم كل واحد منكما , هذا نذير الملل المتسرب لقلب أحدكم "
ط تأتي ساعة الحقيقة , لحظة المواجهة والصدق مع النفس " فإذا صفصف المكان علي وعليها نقول " إن الناطوري لم يبق منه إلا حكايات يتناقلها من هم علي شاكلة الجد هاشم , فقط هي التي لاتريد أن تنصت للواقع "
هنا تتبلور حقيقة , أن الماضي كان كذبة ضخمة , وأن الحقيقة التي كانت , لا تتجاوز لحظات تم تضخيمها , " إعلاميا " عبر حكي اللآباء وتوارث الأبناءالأحفاد لسير هشة , أضاف إليها عازف الربابة مايمنحها بعضا من الملحمية , وبعضا من البطولة الزائفة, وأنسنة مجازية لأفعال لاتعدو كونها أفعال صبيانية .
ربما لاتجد حكاية تقليدية , ذات بداية ووسط ونهاية , ربما لاتجد مشهدية صريحة , ربما يصادفك سرد غامض مفكك أحيانا مقصود لذاته , لكن من المؤكد أنك تعايش لحظات تشويق ورغبة جدلية في معرفة تفاصيل , لن يمنحها إياك أحد , حتي السارد , لأنه لايعرف علي وجه اليقين ,
كيف بدأت وكيف انتهت الحكاية , كما أنه ليس معنيا حقيقة بخلق هذا علي الإطلاق .